موقف الشيخ يوسف الدجوي من الإلحاد والسلفيّة المعاصرة

الدكتـــور
أحمد السيد عبد الحميد الفار
مدرس العقيدة والفلسفة بكليّة أصول الدين بالمنصورة

موقف الشيخ يوسف الدجوي من الإلحاد والسلفيّة المعاصرة

أحمد السيد عبد الحميد محمد

قسم العقيدة والفلسفة – كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة، جمهوريّة مصر العربية.

البريد الإلكتروني: ahmed.alsyd@azhar.edu.eg

ملخص البحث :

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد؛ فتهدف هذه الدراسة إلى إبراز التجديد في علم الكلام من خلال آراء أحد علماء الأزهر في العصر الحديث، وهو الشيخ العلامة يوسف الدجوي. وقد حصرت الدراسة موقفه من تيارين أعلنا عن وجودهما بقوّة داخل المجتمع الإسلامي، وهما: التيار الإلحادي، والتيار السلفي. ولما كان لهذين التيارين تأثير واضح على شباب المسلمين، فإنّ الشيخ رحمه الله خصمها بمزيد عناية. أمّا التيار الإلحادي، فقد استخدم الشيخ نفس الأدوات التي يحاول استخدامها هؤلاء؛ فاستخدم علم الطبيعة، وكيف أنّ الملحدين يخلطون بين الظني واليقيني، فيضعون هذا مكان ذاك ليخرجوا بنتائج خاطئة، وأظهر أنّ علم الطبيعة لا يدعو إلى الإلحاد، وإنّما يدعو إلى الإيمان بوجود خالق للكون، وعرض أدلّة على وجود الله استخدم فيها العلوم التجريبيّة الحديثة كمقدمات يقينيّة في استدلال منطقي نتائجه يقينيّة، لا تدع مجالاً لمعترض. وأمّا السلفيّة المعاصرة، فقد تحدث الشيخ عن الفرق بين مذهبهم ومذهب السلف الصالح في القضايا التي يثيرونها، وهي إثبات الجهة، والأجزاء والأبعاض لله تعالى، وردّ عليهم بالعقل والنقل، والقضيّة الأخرى هي قضيّة

تكفير المسلمين، فتعرّض للأساس الفكري لقضيّة التكفير، وهو تقسيم التوحيد إلى ألوهيّة وربوبيّة، وأظهر أنّ هذا التقسيم لم يكن معروفًا عند السلف الصالح، ولم يقسمه النبي ﷺ، وأوّل من قسمه هو الإمام ابن تيمية، وهو تقسيم منقوض بأدلّة من الكتاب والسنّة، ويفتح بابًا كبيرًا من أبواب التكفير. ثمّ تحدث عن التوسل، وفنّد شبههم، وردّ عليهم. وقد كان الشيخ في مرمى هؤلاء، حتى إنّهم كفروه، ورموه بالقبوريّة، فآثرت في البحث أن أعرض ردود أحد من ردوا على الشيخ في حياته، وهو عبد الله القصيمي الذي ردّ عليه في كتاب أسماه البروق النجدية في اكتساح الظلمات الدجويّة، وأظهرت في البحث تسرعه في الحكم والتزامه بآراء فرق ضالة كالقدريّة وغيرها.

الكلمات المفتاحيّة:

يوسف الدجوي- الإلحاد – علم الطبيعة – توحيد الألوهية – التوسل – السلفية – عبد الله القصيمي.

Sheik Youssef Al-Dujawi's position on contemporary Atheism and Salafism

Ahmed AlSyd Abd elHamid Mohamed.

Department of Doctrine and Philosophy - Faculty of Religious Fundamentals and Advocacy in Mansoura, Arab Republic of Egypt.

Email: ahmed.alsyd@azhar.edu.eg

Abstract:

Praise be to Allah, and blessings and peace be upon the Messenger of Allah; This study aims to highlight the renewal in theology. through the views of one of al azhar scholars in the modern era, Sheikh Al-Allama Youssef Al-Dujwi. The study limited his attitude to two currents, which declared their existence strongly within the Islamic community. the atheistic and salafi current. And since these two current have a clear impact on Muslim youth, the Sheik Rahmah Allah deduct it more carefully. As for the atheist current the Sheikh used the same tools that they used, He used natural science, and how atheist mix confuse thoughtfulness with certainty, so they put this place that to produce wrong results, and showed that natural science does not call for atheism, but rather calls for belief in the existence of allah in which he used modern experimental sciences as certain introductions in logical conclusions, leaving no room for objection. As for contemporary Salafism, the sheik spoke about the difference between their ideology and that of the Good Salafist on the issues they raise which is the proof of the side, the parts to allah Almighty, and he reply to them with reason and transmission. The other issue is the issue of blasphemy, exposing the ideological basis of the blaspheme issue, which is the division of monotheism into diety and deism, He showed that this division was not known to the righteous

predecessor, and the Prophet Peace be upon him. did not divide it, the first one who divided it was Imam Ibn Taymiyyah, and this division has no evidence from the Qur'an and Sunnah, and opens a large section of The blasphemy sections. ther he talked about begging, and he refuted their resemblance, and responded to them. until they disbelieved him, So, I preferred in the research to show the responses of one of those who responded to the Sheikh in his life, and he is Abdullah Al-Qasimi, who responded to him in a book he called Al-Barooq Najdia in sweeping the darkness aldajawia and in the search it I showed its speed in judging and his commitment to the opinions of deviant groups like those who do not believe in Destiny..

Keywords: Yousef Al-Dujawi - Atheism - The Science of Nature - The Unification of Divinity - The Salafi - Abdullah Al-Qassimi.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين.

وبعد؛

فلم يكن علماء الأزهر - يومًا ما - بمنأى عن المجتمع ومستجداته، وكان صفوتهم في مقدمة الصفوف لرد غلو الغالين، وانحراف المنحرفين، بالحكمة والموعظة الحسنة.

ولقد كانت الحملة على العقيدة الإسلاميّة شرسة، والحرب مستعرة، وهذه الحرب كانت باسم العلم الطبيعي التجريبي، فاتخذ الملحدون منه ما ظنوه يخدم إلحادهم.

وللأزهريين على وجه الخصوص جهود في الرد على الملحدين، هذه الجهود منها، ما كان مؤلفات للخاصة، وخطب للعامة، ومقالات للخاصة والعامة.

ومن هؤلاء الأزهريين الشيخ العلامة يوسف الدجوي الذي سلك – من وجهة نظري – مسلكًا فريدًا في ردوده على الملحدين خاصة والمنحرفين عامة، إذ كتب في الصحف السيّارة بأسلوب سهل بسيط يفهمه العامة والخاصة، وهو أيضًا عميق في طرحه، بحيث ينسف ما يطرحه الملحدون من أفكار، ويزداد معه المؤمنون إيمانًا.

وقد كان الشيخ مدافعًا عن حياض العقيدة الإسلاميّة؛ فأنكر على مبتدعة العقيدة، ودافع أيضًا عن وحدة الأمّة الإسلاميّة، فأنكر على مُكفريها بالحجة

والبرهان. والفيلسوف والمفكر الحق هو من يعالج المستجدات التي تطرأ على الساحة الفكريّة، والمجتمعيّة، ويدافع عن عقائد المسلمين.

ومن ثمّ كانت جهود الشيخ منصبة على مواجهة الملحدين من جهة، ومواجهة فتنة التكفير والتجسيم من جهة أخرى، وقد رأيتُ أنّ أبرز هذه الجهود في هذا البحث. وقد كان الباعث على اختيار الإلحاد والسلفيّة المعاصرة معًا في بحث واحد الآتي:

١- إظهار الملحدين أفكارهم في مصر؛ فعلل إسماعيل أدهم لإلحاده في رسالة مطبوعة أسماها: لماذا أنا ملحد؟

٢- إظهار السلفيين عقائدهم أيضًا في مصر، وادعاؤهم أنّهم يريدون عودة الناس إلى عقائد السلف الصالح، ومن ثمّ كفروا طائفة كبيرة من المسلمين بدعوى أنّهم يعبدون آلهة غير الله.

٣- تصدي الشيخ الدجوي لأفكار الملحدين والسلفيين.

٤- لقي الشيخ الدجوي هجومًا كبيرًا من المتعاطفين مع إسماعيل أدهم، واتهموه بالاستقواء بالسلطة عليه، وأنّه لم يرد عليه ردًا علميًّا[1]، وأيضًا لقي

---

(١) انظر: مقال: لماذا أنا ملحد؟ كريم عبد السلام، المصري اليوم، عدد الجمعة ١٢ ديسمبر، ٢٠١٤م. حيث يقول الكاتب: «السياق العام المزدهر فكريًا استوعب رسالة إسماعيل أدهم، فرد عليه أحمد زكى أبو شادي بمقال: لماذا أنا مسلم؟، ثمّ محمد فريد وجدي برسالة: لماذا أنا مؤمن؟، وظل الجدل بين ضرورة الإيمان في المجتمع ومغزى الإلحاد وأسبابه محور النشاط الفكري بمختلف المنابر والدوريات

الشيخ هجومًا عنيفًا من السلفيين، واتهموه بالقبوريّة[1]، وتعني القبوريّة عندهم من يعبدون من في القبور.

من هنا رأيتُ أن أبحث موقف الشيخ من الملحدين والسلفيين معًا، وهل تنطبق عليه التهم المُكالة عليه من الطرفين؟

ومن ثمّ قسمتُ البحث إلى مقدمة، وتمهيد ومبحثين.

أمّا **المقدمة**، فقد ذكرتُ فيها أهميّة الموضوع والأسباب الداعية إليه، وأمّا التمهيد، فقد ذكرتُ فيه ترجمة للشيخ الدجوي رحمه الله.

وجاء **المبحث الأوّل** بعنوان: موقف الشيخ الدجوي من الإلحاد، وهو مكون من ثلاثة مطالب: المطلب الأوّل: الدين ضروري للعمران، المطلب الثاني: علوم الطبيعة والإلحاد، المطلب الثالث: جهود الشيخ الدجوي في الاستدلال على وجود الله تعالى.

وجاء **المبحث الثاني** بعنوان: موقف الشيخ الدجوي من السلفيّة المعاصرة، وهو مكون من مطلبين: المطلب الأوّل: السلفيّة المعاصرة وإثبات الجهة والأجزاء والأبعاض لله تعالى وموقف الشيخ الدجوي، المطلب الثاني:

والصحف، لم يعكرها إلا استعداء الشيخ يوسف الدجوى السلطات على إسماعيل أدهم فضيقت عليه، ومنعت تدريس مؤلفاته، وأغلقت المجلة التي نشرت رسالته».

(١) انظر على سبيل المثال: جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبوريّة، الشمس السلفي الأفغاني، حيث كان يقول على الشيخ: «الدجوي أحد أئمّة القبوريّة».ص٢٤٢، دار الصميعي، ١٩٩٦م.

تقسيم التوحيد إلى ربوبيّة وألوهيّة وموقف الشيخ الدجوي، والخاتمة، وتشتمل على أهمّ النتائج.

هذا، والله أسأل أن يحظى هذا البحث على القبول

تمهيد

ترجمة الشيخ الدجوي رحمه الله

هو الشيخ يوسف بن أحمد بن نصر بن سويلم الدجوي[١]، ولد في دجوة إحدى قرى مركز بنها التابع لمحافظة القليوبيّة عام: (١٢٨٧هـ = ١٨٧٠م)، «من أب عربي من بني حبيب وأم من سلالة سيدنا الحسن السبط رضي الله تعالى عنه».[٢]

فقد الشيخ بصره صغيرًا بسبب مرض الجدري، «ولما أصيب بفقد البصر في صغره بسبب مرض الجدري أخذت أمه تبكي وتتألم فقال لها والدها من كبار الصالحين في زمانه: لا تحزني إنّ الله سبحانه سيعوضه عن بصره ببصيرة نافذة تجعله عالمًا كبيرًا يرجع إليه في حل المشكلات فعدت أمه هذه الكلمة كلمة تسلية مجردة لكنّ الله سبحانه حقق ما قاله أبوها فيه حتى أصبح هذا الطفل فيما بعد عالمِاً عالميًا مشهورًا في الآفاق».[٣]

---

(١) الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، ج٨، ٢١٦، دار العلم للملايين، الخامسة عشر - مايو ٢٠٠٢ م

(٢) فقيد الإسلام العالم الرباني الشيخ يوسف الدجوي، العلامة محمد زاهد الكوثري، منشور ضمن مقالات الكوثري، ص٤٣٤، المكتبة التوفيقيّة، بدون.

(٣) المصدر السابق، نفس الصفحة.

نشأ الشيخ في جو علمي فقد «أرسله والده إلى مكتب ببلدته حفظ فيه القرآن الكريم، ثمّ بعث به إلى الأزهر الشريف سنة ١٣٠١هـ».[١]

وقد كان الشيخ أحد النبغاء في الأزهر الشريف حتى إنّ «شيوخه وهم من الحلة الفطاحل كانوا يستعينون به في دروسهم وهو تلميذ يتلقى عنهم».[٢]

امتحن لنيل الشهادة العالميّة في صفر سنة ١٣١٧هـ، أي ظلّ في الدرس قرابة ستة عشر سنة، وقد «كان امتحانه ونجاحه غرّة في جبين الأزهر الشريف، عرف له ذلك ممتحنوه فصار يهنئ به بعضهم بعضًا وأهل المذاهب الثلاثة يهنئون به المالكيّة لأنّ الشيخ مالكي المذهب».[٣]

حتى قصد منزله الشيخ راضي الحنفي المشهور بالبراعة في العلوم إذ ذاك مع نوع من الترفع عن أهل طبقته، وهنأه بهذا التوفيق ودعا له بالخير، وعد هذا منقبة عظيمة له بين أترابه وفاتحة خير لوجوه التوفيق في سبيل العلم.[٤]

شيوخه:

تلقى الشيخ الدجوي عن كثير من الشيوخ ذكر طرفًا منهم الإمام الكوثري بقوله: «وله شيوخ أجلاء في العلوم، ومن أعظم شيوخه الشيخ هارون بن

---

(١) الكنز الثمين لعظماء المصريين، فرج سليمان، ج١، ص٢٧٠، مطبعة الاعتماد، ١٩١٧م.

(٢) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٣) المصدر السابق، ج١، ص٢٧١

(٤) فقيد الإسلام العالم الرباني الشيخ يوسف الدجوي، العلامة محمد زاهد الكوثري، منشور ضمن مقالات الكوثري، ص٤٣٥

عبد الرزاق البنجاوي المتوفي سنة ١٣٣٦هـ، عن ٨٧ سنة وهو عمدته، والشيخ أحمد الرفاعي الفيومي المتوفي سنة ١٣٢٦هـ عن سن عالية، والشيخ محمد بن سالم طموم المتوفي سنة ١٣٣٦هـ، والشيخ أحمد فائد الزرقاني، والشيخ رزق بن صقر البرقامي، والشيخ داود، والشيخ سليم البشري شيخ الجامع الأزهر، وهؤلاء من السادات المالكيّة، ومن كبار شيوخه أيضًا الشيخ محمد البحيري، والشيخ عطية العدوي الشافعيان. وكان شيخه في علوم القراءة هو القارئ المشهور الشيخ حسن الجريسي الكبير، وسنده في علوم القراءة معروف».[1]

نبوغه في التدريس:

كما نبغ الشيخ في الدرس نبغ أيضًا في التدريس، فكانت دروسه يحضرها عدد كبير من الطلاب، وقد تنوّعت دروسه بين تفسير وحديث وعقيدة وغيرها؛ يقول الشيخ الكوثري: «وكان رحمه الله تعالى آية في الذكاء وسرعة الخاطر وجودة البيان وقوة الذاكرة وسعة العلم يحضر حلقات دروسه في الأزهر الشريف مئات تناهز الألف من العلماء وطلبة العلوم، ويصغون إصغاء كليًّا إلى بيانه الساحر وإلقائه الجذاب وينهلون من هذا المنهل العذب».[2]

---

(١) المصدر السابق، ص٤٣٥

(٢) المصدر السابق، ص٤٣٤

ويقول الدكتور محمد رجب البيومي: «قضي يوسف الدجوي خمسين عامًا من عمره الذي شارف الثمانين، وله كلّ يوم مجلس علم في الصباح، وندوة دينيّة في المساء».(١)

وقد كان الشيخ موضع ثقة في العالم الإسلامي كلّه فكانت تأتيه الأسئلة من أقطار العالم الإسلامي كله؛ يقول الكوثري: و«كان موضع ثقة الجماهير من الشعوب الإسلاميّة في شتى الأقطار اعترافًا منهم بسعة علمه وعظم إخلاصه وبالغ ورعه تتوارد إليه استفتاءات من شتى الأقطار والجهات».(٢)

اختير الشيخ عضو هيئة كبار العلماء في الأزهر الشريف، وخاض الكثير من المعارك الفكريّة إلى توفاه الله يوم الأربعاء الموافق الخامس من صفر سنة ١٣٦٥هـ = ١٩٤٦م عن ثمان وسبعين سنة.

مؤلفاته:

للشيخ رحمه الله عدّه مؤلفات منها:

١- رسائل السلام وقد تُرجم إلى اللغة الإنجليزية وطبعت منه مشيخة الأزهر منه عشرة ألاف نسخة.

٢- مقالات وفتاوى الشيخ وقد جمعها مجمع البحوث الإسلاميّة بعد وفاته.

---

(١) النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، د. محمد رجب البيومي، ج٢، ص١٤٣، دار القلم – الدار الشامية، ١٤١٥ – ١٩٩٥م.

(٢) فقيد الإسلام العالم الرباني الشيخ يوسف الدجوي، العلامة محمد زاهد الكوثري ، ص٤٣٤

٣- خلاصة علم الوضع.

٤- سبيل السعادة.

٥- الجواب المنيف في الرد على مدعي التحريف في القرآن الشريف، وهو رد على الشيعة.

٦- الرد على كتاب الإسلام وأصول الحكم، وهو رد على علي عبد الرازق.

المبحث الأوّل: موقف الشيخ الدجوي من الإلحاد

الإلحاد الذي يعنيه الشيخ الدجوي هو التيار الذي ينكر وجود الله تعالى، ويعتبر الكون أو مادّته الأولى أزليّة، ويعتبر تغيراته قد تمّت بالمصادفة، أو بمقتضى طبيعة المادة وقوانينها، ويعتبر ظاهرة الحياة وما تستتبع من شعور وفكر حتى قمّتها عند الإنسان، من أثر التطور الذاتي في المادة.[1]

وبناء عليه فإنّ الملحد هو الذي ينكر وجود الله، وهو غير اللاأدري الذي يزعم بأنّ إثبات وجود الله أو إنكاره شيء مستحيل.[2]

وقد نال هؤلاء الملاحدة قسطًا كبيرًا من تفكير العلامة الدجوي، ومن ثمّ تنوعت ردوده عليهم، وقد اهتمّ بإسماعيل أدهم[3] اهتمامًا خاصًا، فقد نشر

---

(١) انظر: كواشف زيوف، عبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني، ص٤٣٣، دار القلم، دمشق، الثانية، ١٩٩١م.

(٢) انظر: الموسوعة الفلسفيّة، د عبد المنعم الحفني، ص٤٢٦، مكتبة مدبولي، القاهرة.

(٣) ولد عام ١٩١١م، وتوفي ١٩٤٠م، يقول الزركلي: «تركي الأصل. أمه ألمانية. كان أبوه ضابطًا في الجيش التركي. ولد إسماعيل بالإسكندرية، وتعلم بها وبالأستانة، ثمّ أحرز (الدكتوراه) في العلوم من جامعة موسكو سنة ١٩٣١ وعين مدرسًا للرياضيات في جامعة سان بطرسبرج. وانتخب (عضوا) أجنبيا في (أكاديمية) العلوم السوفييتية. وعهدت إليه جامعة فريبورج بالإشراف على طبع كتاب المستشرق سبرنجو، عن حياة (محمد) عليه الصلاة والسلام. وانتخب وكيلاً للمعهد الروسيّ للدراسات الإسلاميّة. وانتقل إلى تركيا فكان مدرسًا للرياضيات في معهد اتاتورك بأنقرة. وبها نشر كتابه

أدهم رسالته: لماذا أنا ملحد؟ فردّ الدجوي عليه في أربعة مقالات متتالية في مجلة الأزهر، بعنوان: حديث جلل لا يمكن الصبر عليه. والجدير بالذكر أنّ الدجوي لم يصرح باسم الرسالة سالفة الذكر، ولم يصرح كذلك باسم كاتبها إلا مرّة واحدة في مقاله الرابع، وهذا إن دلّ فإنّما يدلّ على حرصه الشديد على التحذير من الجريمة التي تضر بالمجتمع، وذكر المجرم مرارًا وتكرارًا فيه شهرة له، ومن ثمّ انتشار جريمته، وهو ما يفطن إليه الدجوي.

ولقد سار العلامة الدجوي في ردوده على الملحدين في ثلاثة اتجاهات:

الاتجاه الأوّل: بيان أنّ الدين ضروري للعمران.

الاتجاه الثاني: بيان أنّ علوم الطبيعة ليست سببًا في الإلحاد.

الاتجاه الثاني: استدلاله على وجود الله تعالى.

ومن ثمّ قسمتُ هذا المبحث إلى ثلاثة مطالب تتناول هذه الاتجاهات الثلاثة.

(إسلام تاريخي) بالتركية. وعاد إلى مصر سنة ١٩٣٦ فنشر رسالة بالعربية (من مصادر التاريخ الإسلامي) صادرتها الحكومة، و (الزهاوي الشاعر) وكتابًا وضعه في (الإلحاد) وكتب في مجلات مصر والشام مقالات بالعربيّة، منها (علم الأنساب عند العرب) و(نظرية النسبية) و(خليل مطران الشاعر) و(طه حسين: درس وتحليل) و(عبد الحق حامد) الشاعر التركي. وكان يعيش من ريع ملك صغير له في الإسكندرية. وأصيب بالسلّ، فتعجل الموت، فأغرق نفسه بالإسكندرية منتحرًا». انظر: الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، ج١، ص٣١٠، دار العلم للملايين، الخامسة عشر ٢٠٠٢ م.

المطلب الأوّل: الدين ضروري للعمران

يرى الشيخ أنّه لا يصلح لإصلاح النفس البشريّة إلا الدين؛ ويرجع ذلك إلى أنّ الدين معصوم عن الأغراض، والفلسفة وإن كانت ترمي إلى إصلاح المجتمعات إلا أنهّا معرضة للخطأ، وقد ينحرف الفيلسوف فيُهلك المجتمعات من حيث لا يدري؛ فقد يكون له غرض وغاية يطمح إليها من خلال فلسفته، وقد عرف التاريخ الإنساني مذاهب فلسفيّة انحرفت عن الجادة، حتى كانت داعية للانحلال والفجور.

وقد كان الشيخ الدجوي على بينة من هذه الحقيقة، فعقد مقارنة بين الدين والفلسفة، من خلال حوار دار بينه وبين أحد العظماء - بتعبير الشيخ الدجوي - لم يسمه؛ يقول للشيخ: «إنّ الأمّة لا يزعها عن الشرّ إلا أحد أمرين: الدين، والفلسفة. وحيث إنّ الأمّة لا تستطيع الفلسفة، ولا يمكنها أن تكون من ذويها فلا بدّ لها من الدين».[1]

فردّ عليه الشيخ قائلاً: «هناك فروق كثيرة بين الدين والفلسفة، فالفلسفة تستمد من نظريات العقول التي تصيب وتخطئ».[2]

ويضرب على ذلك مثالاً بالأبيقوريّة[3] التي تبحث عن اللذة، ولا ترى الخير إلا

---

(١) مقالات وفتاوى الشيخ يوسف الدجوي، ج١، ص٥٤، مطبوعات مجمع البحوث الإسلاميّة، ١٩٨١م.

(٢) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٣) تنسب إلى الفيلسوف اليوناني أبيقور المولود سنة ٣٤١ق م، وتوفي سنة ٢٧٠ ق م، وفي مذهبه أنّ السعادة هي اللذة الجسميّة من حيث إنّه لا يعترف إلا بالمادة، واللذة هي غاية

فيها، ولا ترى الشرّ إلا في الألم، ثمّ إنّ هناك سببًا آخر يجعل تفكير المشتغل بالفلسفة يخطئ، وهو أنّ له ميولاً وأغراضًا شعر بها أو لم يشعر!

يقول الشيخ: «والإنسان أسير نزعاته وشهواته، محصور في الناحية التي تسيره فيه نزعته الخاصة أو شهوته الخفيّة، وأمامنا فلسفة أبيقور وأتباعه، تلك الفلسفة التي لا ترى الخير إلا في الملاذ الحسيّة، وتقول: إنّ ما وراء ذلك وهم أو خيال».[1]

ومن ثمّ يجب تحصيل اللذة من أي طريق ممكن، وهو الأمر الذي له أثره على بعض ضعاف العقول، وهو ما يرتد سلبًا على المجتمعات؛ فكان من نتائجه وجود طائفة من الناس أشاعوا الانحلال في المجتمعات باسم الخير الذي هو في زعمهم تحصيل اللذة، فلم تعد هناك ملكيّة خاصة لمال، ولم تعد هناك خصوصيّة في زوجة، وعمّ الفساد الأخلاقي باسم هذه المذاهب؛ ولذا يقول الشيخ: «وقد يؤثر زخرفها الخلاب الموافق لأهواء النفوس وشهوات الطبيعة في كثير من أطفال العقول وأسراء فيرون كلّ شيء مباحًا، وأنّ الأموال والأبضاع حق مُشاع بين الناس، وأنّ من الظلم استئثار بعض الناس بشيء؛ فيجب في شرعة الطبيعة أن لا يكون هناك استئثار بملك أو زوجة، وألا يكون هناك تحريم لأخت ولا بنت ولا أم، وأنّ من استطاع

الحياة، ومن ثمّ يجب تحصيلها، والابتعاد عن الألم. انظر: تاريخ الفلسفة اليونانيّة، يوسف كرم، ص٢٩٤، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٦م.

(١) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

الوصول إلى الاستمتاع بشيء من ذلك كله حلّ له أن يتمتع به؛ لأنّه استرداد لحقه المغتصب إلى آخر تلك الفلسفة وزخرفتها».(١)

وفي المقابل فإنّ الدين منزه عن الأغراض، يوصل كلّ إنسان إلى الفضائل، وفي هذا يقول الشيخ: «أمّا الدين فيستولي على النفوس من كلّ جهاتها فيقف بها عند ما حدّ لها من الحدود، ثمّ يحاول أن تكون فاضلة كاملة حتى تؤثر على نفسها ولو كان بها خصاصة، وترى في ذلك كلّ سعادتها وهناءتها، وللقلوب سعادة لا يحس بها ذوو الأموال والمناصب».(٢)

إذن، الفلسفة منتج بشري غير مأمون العواقب، قد يعوج فكر الفيلسوف، فتكون فلسفته مدعاة للفجور والانحلال الأخلاقي، باسم تحصيل السعادة، «فالفلسفة غير مأمونة ولا مُقدَّمة؛ لأنّها من نتائج الأفكار البشريّة».(٣)

وإذا كان الدين ضروريًّا لإصلاح النفس الإنسانيّة، فإنّ الإلحاد خطر على العمران لسببين اثنين:

أحدهما: ضياع الوازع الديني، وإذا غاب الوازع الديني نتج عنه نتائج خطيرة على المجتمع أهمها: أن يأكل القوي الضعيف، وإشاعة الشهوات البهيميّة.

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص٥٤، ٥٥

(٢) المصدر السابق، ج١، ص٥٥

(٣) المصدر السابق ، ج١، ص٥٦

وفي هذا يقول الشيخ: «الإنسان لا يكون إنسانًا إلا بالدين، وإلا غلبت عليه الأغراض ... فنجده حيوانًا يفترس بمخالبه كلّ ضعيف، ويبتلع ما يمكنه أن يسيغه من بني نوعه».[1]

وهذا حق؛ إذ أنّ الوازع الجبلي أو الفطري – وهو أحد أقسام الوازع الثلاثة: الديني والجبلي والسلطاني – يعمل الملحدون على طمسه وهدمه، ومن خلال استقراء أحوال الملحدين نجدهم يحاولون جهدهم إطلاق الشهوات البهيميّة دون رادع أو وازع.

ومن هنا فالإلحاد مرض خطير قد يودي بالمجتمع؛ لأنّ مجتمعًا مُلحدًا سيكثر فيه الشرّ إذ لا وازع حينذاك، وفي هذا انهيار للمجتمعات.

يقول الشيخ الدجوي: «ومتى لم تكن بذور تلك العقيدة ثابتة في أعماق النفوس (عقيدة الألوهيّة)، كان الإنسان إلى الشرّ أقرب منه إلى الخير، بل لا تكاد تكون له فضيلة أو يصدر عنه فعل حميد؛ إذ لا يعتقد جزاء ولا حسابًا، فلا غرو أنْ لا يألوا جهدًا في تحصيل ملاذه التي لا يعرف غيرها، وشهواته التي لا يرجو السعادة في شيء سواها، ولو بادت الأمم وهلكت الشعوب».[2]

فمقصد الملحدين هو إشاعة الزنا وارتكاب الموبقات؛ يقول الشيخ: «أمّا هؤلاء الملحدون الداعون لمحو الأديان فما مقصدهم إلا وضع أساس

---

(١) سبيل السعادة، الشيخ يوسف الدجوي، ص١٩٢، ١٩٣، مطبعة النهضة- مصر- ١٩١٤م.

(٢) مقالات وفتاوى الدجوي ج١، ص٨٤

الإباحة والاشتراك في الأموال والأبضاع بين الناس عامة. وقد كدحوا لإجراء مقصدهم هذا وبالغوا في السعي إليه، وتلونوا لذلك في ألوان مختلفة، وتقلبوا في مظاهر متعددة، وكلما وجدوا في أمّة أفسدوا أخلاقها، وأنزلوها من علياء مجدها إلى حضيض الذلّة والمهانة حتى يكونون بالحيوان أشبه منهم بالإنسان. ولهذا كله اجتمعت جميع الدول على مطاردة الشيوعيين، علمًا بما تؤول إليه مبادئهم من الفساد والذي تأباه سنن الله في خليقته، وتمقته الشرائع السماويّة كلها، ويقضي الحق بمجافاته للحق ومنافرته للصواب». [١]

ثمّ يقول الشيخ: «وما وجود النهلستيين "العدميين"، والكمونستيين "الاشتراكيين"، والهياكستيين "الفوضويين" إلا نتيجة من نتائج العقيدة السيئة». [٢]

ولم يكن الشيخ وحده هو من توصل إلى هذه النتيجة من خلال استقراء أحوال الملحدين، بل إنّ الإمام محمد الخضر حسين يؤكد أنّ «من طباع الإلحاد: اتباع الشهوات، والانطلاق في الإباحيّة، فالملحد لا يحافظ على عِرْضِ أحد، ولا على ماله، ولا على حرمه، إلا أن يعجز عن الوصول إلى شيء من ذلك، ومتى ساعدته الفرصة، وظنّ أنّه بمأمن من العقوبة، عاث في الأعراض والأموال غير متحرج من انتهاك حرماتها، وقد يقع انتهاك الأعراض ونحوها من غير الملحد بدافع الشهوة، أمّا الملحد، فإنّه يأتيها

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص٤٧٧، ٤٧٨

(٢) المصدر السابق، ج١، ص٨٠

مستبيحًا لها، وضرر الطائفة التي ترتكب الفسوق مستبيحة له أشد من ضرر من يفعله معتقدًا أنّه يأتي أمرًا محرّمًا».[١]

وثانيهما: ضياع وحدة الأمّة وانقسامها، ومن ثمّ تفتتها وزوالها؛ يقول الشيخ: «وإنّ وجود هؤلاء بين الأمم هو الداء العضال؛ إذ بهم تذهب وحدتها وتنعدم جامعتها، وإنّ تطهير الأمم منهم قبل تفاقم شرهم، وانتشار عدواهم لأوجب من تطهيرها من ميكروبات السلّ وجراثيم الكوليرا».[٢]

والخلاصة، أنّ الضامن لوحدة المجتمعات وتماسكها هو الدين، وإنّ الإلحاد يدعو إلى الفجور والانحلال، ومن ثمّ تفسخ المجتمعات، وزوالها.

مصير المجتمعات عند وجود جيل كامل من الملاحدة

وبعد أن أبان الشيخ الدجوي عن مقصد الملاحدة راح يخاطب مخيلة الإنسان حين يتخيل وجود جيل كامل من الملاحدة فماذا يكون من أمرهم؟ وما هو مصير المجتمعات في ظلّ وجود مجتمع كامل قوامه الملاحدة؟

يقول الشيخ: «وقد يسهل عليك أن تتخيل جيلاً من الناس حُرم هذه العقيدة (الدينيّة)، فكم يبدو لك فيه من شقاق وكذب ونفاق، وحيل وخداع، ورشوة واختلاس، كما نشاهد ذلك في كثير من مسلمينا الآن، وكم يغْش نظرك من

---

(١) الإلحاد أسبابه، طبائعه، مفاسده، أسباب ظهوره، علاجه، الإمام محمد الخضر حسين، ضمن الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، ج٥، ص٢٣، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، الأولى، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م.

(٢) المصدر السابق، ج١، ص٨٥

مشاهد الحرص والشره والغدر والاغتيال وهضم الحقوق والجدال، وكم تحس فيه من جفاء للعلم وغشوة من نور المعرفة». [١]

فباستقراء أحوال المجتمعات يتضح أنّ الرادع للنفس الإنسانيّة عن الانغماس في الرذائل هو الدين، والنفس التي لا وازع لها من دين، تطلق لنفسها الطموحات والأهداف، وتريد أن تصل إلى أهدافها حتى لو على جثث الآخرين، ومن ثمّ يشيع القتل، والفساد في الأرض.

والحق أنّ النفس التي لا وازع لها من دين يمكن أن تتحايل على القانون، وأن تخرج عليه على نحو ما يفعله بعض الناس فيأخذون ما ليس لهم.

الإلحاد والحريّة

يفند الشيخ شبهة لا طالما أثارها الملاحدة، وهي الإلحاد بدعوى الحريّة، فيؤكد الشيخ أنّ حريّة الاعتقاد تكون بالاعتقاد في النفس مع عدم نشره بين العامة من أجل إفساد عقيدتهم وزعزعة استقرار المجتمع. أمّا إذا كان مع نشره في الناس من أجل إفسادهم فلا تسمى هذه حريّة بل تسمى إفسادًا.

يقول الشيخ الدجوي: «أمّا حريّة الأديان والمعتقدات التي يستند إليها الجاهلون فمعناها أنّ كلّ أحد يعتقد ما يشاء ويتدين بما أراد، لا أنّه يحرج القلوب، ويطعن في العقائد، ويسفه الأحلام، وينشر النشرات، ويؤلف المؤلفات، ويهيئ الجمعيات والدعايات كما فعل إسماعيل أدهم المعترف بذلك كله في كتابه. فأين هذا من ذاك يا رجال القانون؟». [٢]

---

(١) مقالات وفتاوى الدجوي، ج١، ص٤٨٠، ٤٨١

(٢) المصدر السابق، ج١، ص٤٧٨

وإذا كان الدجوي يوجه خطابه بالأساس إلى الجماهير، فإنّه يوجه خطابه إلى الحكومات أيضًا مبينًا شرور الملاحدة وأثرهم على التقدم الصناعي والعمراني.

يقول الدجوي: «يا أيها الزعماء العظام والوزراء الفخام: إن لم تعملوا لدينكم فاعملوا لدنياكم، فإنّ الملحدين الطاعنين على الأديان ما ظهروا في أمّة من الأمم إلا أفسدوا أخلاقها، وأوقعوا الخلل في عقولها، وتخطفوا قلوب آحادها بأنواع من الحيل، وألوان من التلبيس، حتى تصبح تلك الأمّة وقد وَهِيَ أساسها، وتفطر بناؤها، واغتالتها رذائل الأخلاق من الأثرة وعبادة الشهوات، والجرأة على ارتكاب الخيانات. ولا يزال الفساد يتغلغل في أحشائها حتى تضمحل ويمحى اسمها من صفحة الوجود، أو تضرب عليها الذلّة والصغار، ويخلد أبناؤها في الفقر والعبوديّة».(١)

فما وجد الملحدون في أمّة إلا كانوا صدعًا في جدرانها، «وما رزئت بهم أمّة ولا مُني بشرهم جيل إلا انتكث فتله، وسقط عرشه حين تبددت آحاد الأمّة وفقدت قوام وجودها. وكيف لا وهذه الطائفة الملعونة تحمل في طيات تعاليمها، وثنايا مبادئها الإجرام الخلقي، والتهتك العلني، والمطاعن الهوجاء في الديانات، والسخرية الجهريّة بخالق الأرض والسماوات، ولمز المعتقدات المقدسات».(٢)

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص٤٧٦، ٤٧٧

(٢) المصدر السابق ، ج١، ص٤٧٥، ٤٧٦

والخلاصة، أنّ الشيخ الدجوي – رحمه الله – يرى أنّ الإلحاد خطر على العمران، وإذا كان هناك حرص على العمران، فإنّ العمران في ظلّ وجود هذه الطائفة سيؤول إلى الخراب؛ لأنّ العمران معلول للنظام، فإذا وجد النظام وجد العمران، وإذا وجدت الفوضى وجد الخراب، فالأولى بمن يريد النظام محاربة الإلحاد.

المطلب الثاني: علوم الطبيعة والإلحاد

ذهب فريق من الملحدين في العصر الحديث إلى الإلحاد بدعوى أنّ علوم الطبيعة تدعو إلى الإلحاد، وأنّ هناك انتشارًا كبيرًا بين الشباب لهذه الدعوى، وفي هذا يقول الشيخ: «إنّ الإلحاد قد طمّ سيله، وعمّ ويله، وظنّ أربابه أنّهم وصلوا من العلم إلى ما لم يصل الأولون»[1]، ويقول: «مُنينا في هذه العصور – التي يجدر بنا أن نسميها عصور الزور والإثم والفجور – بقوم ينسبون إلى العلم ما يتبرأ منه العلم، فيعارضون كلّ شيء جاءت به الديانات بحجة أنّ العلم يأباه».[2]

ثمّ أخذ الشيخ في تفنيد هذه الشبهة، فيقرر في البداية «أنّ نسبة الإلحاد إلى علم الطبيعة افتراء على علم الطبيعة».[3]

فعلم الطبيعة له مجالاته التي يعمل فيها ولا يمكن أن يتعداها، ومن ثمّ حرص الشيخ على تعريف علم الطبيعة وتحديد مجالاته حتى يتسنى للقارئ

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص٢٥٣

(٢) المصدر السابق، ج١، ص١٣

(٣) المصدر السابق، ج٢، ٢٦٦

أن يعرف طبيعة هذا العلم وحدوده، أو ما يميزه في الذهن عما عداه، فإنّ الخلط في التصور يعقبه الخطأ في الحكم.

أولاً: تعريف علم الطبيعة وحدوده

يعرف الشيخ علم الطبيعة بقوله: «علم الطبيعة: **علم تُعرف به علاقات الأشياء بعضها ببعض**».[1]

وإذا نظرنا إلى تعريف الشيخ لعلم الطبيعة وجدناه تعريفًا بالرسم التام، فقوله: "علم" جنس في التعريف يشمل جميع العلوم الفيزيقيّة والميتافيزيقيّة، وقوله: "تُعرف به علاقات الأشياء بعضها ببعض" خاصة خرج بها ما يبحث فيه عن حقائق الأشياء، وما قبل وجود الظاهرة الطبيعيّة، ومن أوجد هذه الظاهرة؟ ولماذا أوجدت هذه الظواهر؟ أو كيف أودعت الخواص؟

والنتيجة التي يريد أن يوصلها الشيخ للقارئ أنّ علم الطبيعة «يبحث عن طبائع المادّة وصورها من حرارة، وبرودة، ورطوبة، ويبوسة، ومعرفة قوانين تبدُّلها من حيث الصلابة والسيولة والغازيّة».[2]

فعلماء الطبيعة يحاولون فهم «ماهية المادة وأسباب سلوكها المُشَاهد، وكيفية إنتاج الطاقة، وانتقالها من موقع إلى آخر وكيفية التحكم فيها. كما أنّ

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص١٤

(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عبد الحميد عمر، ج٢، ص ١٣٨٥، عالم الكتب، الأولى، ٢٠٠٨ م

للفيزيائيين اهتمامًا بالعلاقة بين المادة والطاقة وكيف يؤثر بعضهما في الآخر على مدى الزمان والمكان».[١]

وظيفة علم الطبيعة إذن تتمثل في الآتي:

١ – البحث في طبيعة المادة وخواصها.

٢ – معرفة قوانين تبدلها من حالة لأخرى.

٣ – كيفيّة إنتاج الطاقة.

٤ – العلاقة بين المادة والطاقة.

ثانيًا: الإلحاد باسم علم الطبيعة افتراء عليه

وبعد رسم علم الطبيعة، ينبه الشيخ على أنّه لا علاقة له بما وراء البحث عن وصف الظواهر وربطها مع بعضها البعض. يقول الشيخ: «إنّ نسبة الإلحاد إلى علم الطبيعة افتراء على علم الطبيعة، فإنّه لا علاقة له بأوائل الأشياء ولا أواخرها، وليس في قدرته أن يعرف من أين جاءت ولا إلى أين تذهب، ولا ذلك من أبحاثه وأنّه لينطق بعجزه عما وراء الطبيعة، ولكنّه يقدس بأسراره البديعة، ذلك الفاعل المستتر بكنهه الظاهر بآثاره، الذي دق عن رؤية الأبصار وجلّ عن أن يقع تحت الحس».[٢]

ولأنّ الشيخ يكتب للعامة والمثقفين على حد سواء؛ فإنّه راح يضرب الأمثلة على مهمة علم الطبيعة وكنهه ووظيفته بحيث تتضح الحدود الدقيقة لهذا

---

(١) الموسوعة العربية العالمية، ج١٧، ص٦٧٣، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، المملكة العربيّة السعوديّة، الثانية ١٩٩٩م.

(٢) مقالات وفتاوى الدجوي ج٢، ص٢٦٦

العلم وعدم الخلط بينه وبين غيره من العلوم وذلك للعامة والمثقفين على السويّة فقال رحمه الله: «فعلم الطبيعة يعرفنا مثلاً أنّ جزءًا من الأكسجين وجزأين من الأيدروجين تكون ماء، ولكن كيف كوّن هذان العنصران ماء مع أنّ الأوكسجين عنصر محرق، متى لقيه شيء قابل للالتهاب التهب، والأيدروجين عنصر لا يعيش فيه الحيوان، وكذا الأزوت الداخل في تركيب الهواء بنسبة ٧٩٪ فكيف كونا ماء أو هواء تكون به الحياة وأحدهما محرق والآخر مميت؟ إذا سألته هذا السؤال أجابك أنّه عاجز عن تعليل ذلك، وإنْ هو إلا علم تجربة فقط، فما أدت إليه التجربة العمليّة جعله قانونًا من قوانينه، وإن كان لا يعرف لماذا كان؟ ولا كيف كان؟ فضلاً عن أنْ يعرف أوّل الأشياء وآخرها أو كنها أو حقيقتها».[١]

وإذا سألت عالم الطبيعة كيف تمثلت تلك الأصناف التي تأكلها من البقول والخضروات والفواكه إنسانًا سميعًا بصيرًا عالمًا متكلمًا؟ أو كيف انقلب هذا التراب زرعًا وزيتونًا ونخيلاً وأعنابًا وثمرات مختلفة الأشكال والطعوم والألوان؟ كانت الإجابة: ليس هذا من اختصاصي.[٢]

إذن، لا علاقة لعلم الطبيعة بالبحث عمّا وراء الظواهر الطبيعيّة، ولذلك يؤكد الشيخ على هذا في قوله: «إنّ الطبيعيين كثيرًا ما يخالفون علم الطبيعة، وما توجبه عليهم قواعده وأصوله فيتكلمون فيما وراء الطبيعة في مسائل لم يمحصها النظر ولا أحكمت فيها التجربة مخالفين بذلك ما أوجبه عليهم

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص١٥

(٢) انظر: المصدر السابق، ج١، ص١٦

العلم الطبيعي من الرجوع إلى الحس، والتعويل على المشاهدة، وطرح كلّ نظريّة لم تصقل بنيران الامتحان، ولم توزن بموازين التجارب المتكررة».[1]

فما وراء الطبيعة لا يقع تحت سلطان الحس، ولا يمكن أن يمحص بالتجربة.

والخلاصة، أنّ العلم الطبيعي يبحث في علاقة الأشياء بعضها ببعض، ويُعنى بدراسة المادة والطاقة، ووسيلته هي الملاحظة والتجربة وفرض الفروض العلميّة، ولا علاقة له بالبحث عمّا وراء الطبيعة، فليس هذا من اختصاصه، ومن ثمّ لا يمكن أن يكون باعثًا على الإلحاد.

القطعي والظني من علم الطبيعة

على أنّ هناك خطأ آخر يقع فيه الملاحدة حين يعتمدون على علم الطبيعة، وهو الخلط بين يقينيات العلم الطبيعي التجريبي، وبين ما هو نظرية لم تثبت، ومن ثمّ يطرأ عليها التغيير والتبديل والمحو، إمّا بنظريّة مثلها أو بدليل يقيني قائم على التجربة، فينزل هؤلاء الملاحدة الظني مكان اليقيني، وهذا ما يؤكده الشيخ بقوله: «ولكن نحب منهم أن يخلصوا للعلم أيضًا، فلا يوهمونا أنّ الظنيّ قطعي والتخميني يقيني، نحب منهم دائمًا أن يضعوا نصب أعينهم أنّ العلم متغير متبدل، وأنّ عقل الإنسان قاصر والكون كبير وأسرار الوجود لا نهاية لها، فإذا لم يخلطوا التخميني باليقين، ولم تغلب

---

(١) أدعياء علم الطبيعة وجهلة علم الدين، الشيخ يوسف الدجوي، منشور ضمن كتاب: صواعق من نار في الرد على صاحب المنار، عبد الرافع نصر، ص٣١، مكتبة التقدم التجارية، بدون.

عليهم الأثرة والتبجح بما اكتشفوا، ووقفوا عند حدّ العلم الصحيح، ولم يصادموا كلّ شيء بمقتضى ذلك الاكتشاف الناقص الذي أكملوه من نزعاتهم وأهوائهم وخيالهم، لو فعلوا ذلك لرحبنا به كلّ الترحيب».[١]

ويقول: «نريد من الطبيعيين أن يقولوا فيما وصلوا إليه من القطعيات: إنّه قطعي، وفيما هو محلّ البحث والافتراض إنّه فرضي، وفيما جهلوه رأسًا إنّهم جاهلون به لم يصلوا إلى حقيقته ولا سرّه، وبهذا يكونون قد أخلصوا للعلم ولأنفسهم وللناس جميعًا».[٢]

وإذا لم تحدد القطعيات من الظنيات فهناك فئة تخلط بين القطعي والظني ومن ثمّ تكون الأحكام خاطئة، ويكون التغرير بالشباب؛ يقول الشيخ: «يتوهم بعض الناس أنّ العلم قد يعادي الدين ويباينه، لأنّ بعض النظريات العلميّة المعروفة لا تتفق هي وبعض القواعد الدينيّة ظاهرًا. غير أنّ المتأمل الذي يحقق ويبحث يعلم أنّ كثيرًا من نظريات العلم يطرأ عليها التغيير، وأنّ كثيرًا من الآراء العلميّة التي كان يرى أصحابها أنّها هي الثابتة والتي أفضى إليها البحث، قد أظهرت الاكتشافات الحديثة خطأها وعدم صحتها».[٣]

فالنظريات التي لم ترق إلى الحقيقة العلميّة تتغير بالمنجزات العلميّة التي تصقل بالتجربة، وهذا ما يؤكده الشيخ بقوله: «إنّ العلم الذي يستندون إليه

---

(١) مقالات وفتاوى الدجوي ج١، ص٧١

(٢) المصدر السابق، ج١، ص٧٨

(٣) المصدر السابق، ج١، ص٢٩٦

كثيرًا ما ينقض اليوم ما قرره بالأمس، فقل لي بعيشك أيّ ثقة تبقى لهذا العلم بعد ذلك».[١]

وهذا الذي يقوله الشيخ هو ما انتهى إليه علماء الفيزياء أنفسهم؛ يقول ستيفن هوكنج[٢]:

«إِنَّ أَيَّة نظَرِيَّة فيزيائية هي دائمة نظَرِيَّة مؤقتة، بمعنى أنَّها مجرد فرض».[٣]

فهناك ضرورة ملحة حول التفرقة بين الفرض العلمي والحقيقة والعلميّة، فالفرض لا تبنى عليه عقيدة، وكذلك النظريّة التي تبنى على فروض لم يثبت اضطرادها بالتجربة، أمّا الحقيقة العلميّة قد ثبتت بالتجربة ومن ثمّ يصح الاستدلال بها.

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص٢١

(٢) ستيفن ويليام هوكينج ولد في أكسفورد، إنجلترا ٨ يناير ١٩٤٢م، من أبرز علماء الفيزياء النظرية وعلم الكون على مستوى العالم، درس في جامعة أكسفورد وحصل منها على درجة الشرف الأولى في الفيزياء، أكمل دراسته في جامعة كامبريدج للحصول على الدكتوراه في علم الكون، له أبحاث نظرية في علم الكون وأبحاث في العلاقة بين الثقوب السوداء والديناميكا الحرارية، كما له أبحاث ودراسات في التسلسل الزمني. توفي: ١٤ مارس ٢٠١٨م. نقلاً عن ويكيبيديا على الشبكة العنكبوتيّة (الإنترنت).

(٣) نقلاً عن: قرينة السياق ودورها في التقعيد النحوي والتوجيه الإعرابي في كتاب سيبويه، د. إيهاب عبد الحميد عبد الصادق سلامة، ص٣٥٦، رسالة دكتوراه من كلية البنات للآداب والعلوم والتربية، جامعة عين شمس، قسم اللغة العربية.

ويضرب الشيخ أمثلة على نظريات تغيرت أو بُدلت أو محوت، بقوله: «وقد كان الطبيعيون إلى ما قبل مائة وخمسين عامًا يفكون جميع المعميات الوجوديّة بالعناصر الأربعة: الماء، والهواء، والنار، والتراب، وقد اتضح اليوم بالتجربة أنّها مركبة. وماذا يدريهم أنّ العناصر التي زعموها بسيطة وأوصلوها إلى ثمانين مركبة؟ وأنّ قصور آلاتهم عن تحليلها هو الذي جعلها بسيطة في نظرهم».[1]

ويضرب الشيخ مثالاً آخر بجسم الإنسان فيقول: «هذا الجسم الإنساني كم فيه من جزء كانوا يظنون أنّه لا منفعة فيه، ثمّ تبين بعد ذلك أنّ فيه عدّة منافع، وناهيك ما يقولون الآن في الغدد، وما اكتشفوه فيها من الأسرار والخصائص، ولا يزال العلم بأسرار ما أودع الله في مخلوقاته في دوره الأوّل».[2]

ومن ثمّ فقد كان كثيرًا ما يردد قول كاميل فلامريون[3] – وهو عالم فلكي فرنسي – عن المتجاسرين الذين يزعمون أنّ الظني أصبح يقينيًّا مع أنّ كبار العلم يتواضعون ويضعون ويجعلون ما توصلوا إليه من قبيل الظني.

---

(١) مقالات وفتاوى الدجوي، ج١، ص٧٥

(٢) المصدر السابق ج١، ص٢٩٨، ٢٩٩

(٣) عالم فلكي فرنسي، قال عنه العلامة محمد فريد وجدي: «كاميل فلامريون من أبلغ فلكي هذا العصر وأنجبهم، وقد سلك في معوصات هذا العلم مسلكًا لم يقم عليه غيره». دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، ج٧، ص٥١٧، دار الفكر بيروت. وقال عنه عبد الرحمن حبنكة الميداني: «وهو فيلسوف ينكر اليهودية

يقول العلامة الدجوي نقلاً عن كاميل فلامريون قوله: «يا حضرات المحررين؟ إنّ الناس يتوهمون أنّ معلميكم يعلمونكم هذه الهذيانات مع أنّ الأمر بخلاف ذلك، لأنّ هذه الادعاءات ليست أمام النظر العلمي إلا هباء منثورًا. على أني لا أدري أي الأمرين يستحق أن يتعجب منه أكثر: أمن هذه الجسارة الصادرة من هؤلاء الممثلين العجيبين للعلم، أم من سخافة ادعاءاتهم؟" إنّ نيوتن كان يقول: "يظهر لي" وديكارت كان يقول: إني استنزل حلمكم في هذه الفروض ولكن هؤلاء يقولون: نحن نثبت، نحن ننكر، هذا موجود، هذا غير موجود، العلم قد حكم، العلم قد أقرّ، العلم أدحض، مع أنّه ليس فيما يقولون ظلّ من البرهان العلمي. إلى أن قال: إنّكم تتجاسرون أن تعزوا للعلم هذا العبء الثقيل، ولئن سمعكم العلم أيها السادة لقد حق له أن يضحك استهزاء من غروركم».[1]

والخلاصة، أنّ علم الطبيعة ليس من اختصاصه البحث فيما وراء الطبيعة، وأنّه يجب التفرقة بين ظنيات علم الطبيعة ويقينياته، وأنّه يجب على

والنصرانية ولا يعرف الإسلام». صراع مع الملاحدة حتى العظم، عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص١٢٥، دار القلم، دمشق، ١٩٩٢م، من مؤلفاته: المجهول والمسائل النفسيّة، الله في الطبيعة، الفلك للعاشقين. ولم أعثر في المصادر على سنة مولده ووفاته.

(١) مقالات وفتاوى الدجوي، ج١، ١٧، ج٢، ص٢٧٩، وسبيل السعادة، العلامة الدجوي، ص٣٠، ٣١، مطبعة النهضة الأدبيّة، ١٩١٤م.

المشتغلين بهذه العلوم إظهار ذلك وعدم إيهام الناس بأنّ الظني يقيني وأنّه غير قابل للتعديل أو التبديل أو التغيير.

تقليد الملحدين الشرقيين لأساتذتهم في الغرب

إنّ فريقًا من الملحدين في الشرق ليسوا إلا مقلدين لأمثالهم في الغرب، وكان حريًّا بالشرقيين ألا يقلدوا إلا فيما هو ثابت قطعًا لا فيما لم يثبت، ولذا ينعى عليهم الشيخ ذلك في قوله: «ومما يزيد الأمر خطورة ويملأ القلوب أسفًا أنّ كثيرًا من أبنائنا أصبحوا يقلدون الغربيين في كلّ ما ينقل عنهم من غير بحث ولا نظر ولا تحليل ولا تمحيص، ويكفيهم برهانًا على صحته أنهّم قالوا، مع أنّه عند قائليه ربما كان في محلّ الظن والتخمين، وربما كان فرضًا وجدوه أقرب من غيره من الفروض، فقالوا به حتى يتبين لهم خلافه فيرجعون عنه. ولكنّ المفتونين بهم عندنا جعلوهم في محل التقديس فلا يبحثون فيما جاء عنهم كائنًا ما كان، وليس هذا شأن المنطق ولا الفلسفة ولا الدين، فهي على رأي بعض علمائنا كلمات قالها قائل، فنقلها ناقل، فقبلها قابل، فاغتر بها جاهل لا قدرة له على النظر».[1]

تناقض الملحدين باسم العلوم الطبيعيّة

تناقض الملحدين بيّن ظاهر؛ ذلك أنّ هؤلاء أنكروا ما وراء الحس، ولكنّ منجزات العلم التجريبي الذي يؤمنون به أوقعتهم في التناقض؛ لوجود موجودات لا تدركها الحواس، ولو صدق الملحدون مع أنفسهم لآمنوا

---

(١) مقالات وفتاوى الدجوي، ج١، ١٧، ج٢، ص٢٩، ٣٠

بوجود موجود خارج عن الحواس، أو أنكروا كلّ ما لا تدركه حواسهم، حتى لو كان من منجزات العلم التجريبي.

يقول الدجوي: «إنّكم ما أخذتم علمكم إلا عن الحواس، وهي في خداجها وخداعها على ما بيّنه العلماء. فما هذا التبجح الذي لا أساس له يا إخواننا في الإنسانيّة؟ ولست أدري كيف ينكرون ما وراء الحسّ ويتبجحون بأنّهم لا يقولون إلا بالمحسوس، وقد تركوا لغيرهم الخرافات والأوهام، ساخرين منهم هازئين بهم، مع أننا نراهم أثبتوا الأثير وبنوا عليهم كثيرًا من قواعدهم، ولم يروه ولا أحسوا به. فإن قالوا: أثبتناه بالأدلّة الكثيرة فقد نقضوا أصلهم ورجعوا إلى الاستدلال، وأي فرق إذًا بينهم وبين من يستدلّ على الله بآثاره وباهر أنواره».[1]

فما داموا قد أثبتوا وجود ما ليس محسوسًا، ولا يقع تحت دائرة الحس، فلماذا أنكروا وجود الله تعالى؟

وتأكيدًا على تناقضهم أنهّم ذهبوا إلى أنّ المادة قوّة أو راجعة إلى قوّة خارج نطاق الحواس، وفي هذا يقول الشيخ الدجوي: «إنهّم يقولون: إنّ المادة قوّة أو هي راجعة في آخر أمرها إليها، وقد رجعوا عن الرأي القديم فيها، أفلا يرى القارئ الكريم أنهّم قالوا بالمجردات من حيث لا يشعرون؟ بل زادوا علينا بأنّ كلّ شيء من الماديات هو في حقيقة أمره قوّة تقمصت هذه

(١) المصدر السابق، ج١، ص٣٣

الصور وتلك الأشكال، فما زادهم بعد ذلك من القول بما وراء المادة، وقد أكثروا الدوران ثمّ رجعوا إليه».[1]

ثمّ يضرب الدجوي مثالاً أقرب وهو أنّه كان أولى بهؤلاء الماديين أن ينكروا أرواحهم وعقولهم؛ فهي ليست محسوسة بالحواس الظاهرة؛ يقول الشيخ: «ولكنّ هؤلاء محبوسون في سجن الماديات قد أحاطت بهم الظلمات، فلا يعرفون إلا المكيفات ولا يعترفون إلا بالمحسوسات، وكان عليهم أن ينكروا أرواحهم فإنّها ليست بمحسوسة، ولا يصدقوا عقولهم فإنّها ليست بمحسوسة، وكلّ ما لم يقع عليه الحس عندهم فليس بموجود».[2]

والخلاصة، أنّ الملحدين باسم العلوم الطبيعيّة وقعوا في التناقض، والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان معًا، فلذا وجب وقوع أحدهما ونفي الآخر، وإذا كان علم الطبيعة يدعو إلى الإيمان بما ليس بمحسوس كالأثير وغيره مما لا يقع تحت دائرة الحواس، فوجب على هؤلاء الإيمان بأنّ هناك موجودات متعالية على الحواس، ومن ثمّ لا ينكرون وجود الله تعالى بدعوى أنّه لا يقع تحت دائرة الحواس.

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص٧٩

(٢) المصدر السابق، ج١، ص٤٦٩

المطلب الثالث: جهود الشيخ الدجوي في الاستدلال على وجود الله تعالى

يرى الشيخ أنّ إلحاد الملحدين ليس لضعف في الأدلّة على وجود الله، وإنما يرجع ذلك إلى نفيسّة الملحد ذاته، فهناك من البراهين على وجود الله ما يفوق العدّ والحصر، وهي في دلالتها أوضح من نور الشمس في رابعة النهار؛ يقول الدجوي: «فإياك أن تظنّ أنّ إلحاد الملحدين لضعف في دلالة الآيات أو قوّة فيما لديهم من الشبهات، كيف وقد وصلت الآيات إلى حدّ الحس، وصارت أبهى لدى العقلاء من نور الشمس، وقام عليها ألوف البراهين، ولا شيء أجلى منها لدى من هو مستعد لأنوار اليقين».[١]

ومن ثمّ فوجود الله بدهي، ومعرفته «ضروريّة من حيث العقل دون الحس، والتذكير بها كالتذكير بالضروريات كالموت».[٢]

وقد تحدث الشيخ كثيرًا عن أدلّة وجود الله تعالى، ويمكن حصر أدلته في دليلين اثنين: أحدهما: دليل الحدوث، والثاني: الأدلّة الكونية.

أمّا الدليل الأوّل: وهو دليل الحدوث

فقد سلك الشيخ فيه طريقين: **أحدهما**: أنّ الممكنات متغيرة، والتغير دليل الحدوث، وكلّ حادث لا بدّ له من محدث، يقول الشيخ نقلاً عن صمويل

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص٤٥٧

(٢) المصدر السابق، ج١، ص٢٩٧

كلارك[١]: «لا بدّ لنا من فرض أنّ شيئًا وجد من الأزل بدليل وجود الأشياء الآن، وهذا الغرض حقيقة لا شك فيها؛ لأنّ كلّ موجود من هذه الممكنات يجب أن يكون هناك سبب أوجده أي أصل قام عليه وجوده، وهذه الأشياء إمّا موجودة بذاتها فهي إذن قديمة أزليّة، وهو ما لا سبيل إليه لما نرى فيها من دلائل التغير والحدوث الدالة على أنّه ليس لها شيء واجب لذاتها، وإمّا أن تكون موجودة بموجد تقدم عليها فيكون هو القديم الأزلي».[٢]

وهو ذاته الدليل الذي استخدمه المتكلمون؛ يقول الباقلاني: «هذا العالم مؤلف من أجسام وأعراض، والأجسام مؤلفة من أجزاء لا تتجزأ أو جواهر فردة، والجواهر الفردة محدثة لأنها لا تنفك عن الأعراض، والأعراض حادثة لأنها تتغير وبما أنّ مالا ينفك عن الحوادث فهو حادث فالجواهر حادثة، وإذا كان الجسم مؤلفًا من جواهر حادثة فهو حادث، فالعالم إذن

---

(١) صموئيل كلارك، فيلسوف انجليزي، قال عنه العلامة محمد فريد وجدي: «كان تلميذًا وصديقًا للعلامة نيوتن، من أشهر فلاسفة الإنجليز، ولد ١٦٧٥، وتوفي ١٧٩٢م». دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، ج١، ص٤٩٧، ٤٩٨، ويقول عنه وِل ديورَانت: «أمّا صمويل كلارك الذي ألمّ بقدر كبير من الرياضيات والفيزياء، يكفي للدفاع عن نيوتن ضد ليبنز، فإنّه أخذ على عاتقه إثبات الدين المسيحي ببراهين في دقة الهندسة وقساوتها. وفي محاضرات بويل للدفاع عن المسيحية في ١٧٠٤، صاغ كلارك سلسلة من اثنتي عشرة قضية تثبت، في تقديره، وجود الله في كل زمان ومكان، وأنّه قدير عليم كريم». قصة الحضارة، وِل ديورَانت، ج٣٤، ص٣٧، من مؤلفاته: إثبات وجود الله.

(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٢٦٣، ٢٦٤

بأجسامه وأعراضه حادث، والحادث لابد له من محدث وهذا المحدث هو الله تعالى».[١]

ويظهر لي أنّ الشيخ اعتمد على صمويل كلارك ولم يعتمد على المتكلمين مراعاة لأحوال المخاطبين، فالمنبهرون بالغرب النافرون من الثقافة الإسلاميّة، يخاطبون بما يعرفون أو بما هم به منبهرون.

الطريق الثاني: ويبدأ فيه أيضًا من العالم المنظم المحكم، ويبني دليله على مقدمتين: أحدهما: أنّ العالم منظم محكم، وهذه قضيّة ضروريّة[٢]، والمقدمة الثانية: أنّ هذا النظام والإحكام لا بدّ أن يكون من منظم وحكيم، وهي أيضًا قضيّة ضروريّة، فالنتيجة هذا العالم له خالق حكيم هو الله.

وبيان المقدمة الأولى كالتالي: العالم موجود ومنظم ومحكم يلمسها كلّ أحد فهي ضروريّة راجعة إلى الحواس، وقد زادها الشيخ بهاء عندما نبه عليها من منجزات علم الطبيعة ذاته وهو ضروري عندهم لا يجادلون فيه.

---

(١) تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، أبو بكر محمد بن الطيب بن جعفر بن القاسم أبو بكر الباقلاني، ص٤١ – ٤٤، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

(٢) حصر العلماء التصديقات الضرورية فِي سِتّ البديهيات والمشاهدات والفطريات والمجريات والمتواترات والحدسيات. وهذه المقدمة من المشاهدات وهِيَ قضايا يحكم بهَا الْعقل بِوَاسِطَة الحُواس الظَّاهِرَة وَتسَمى حسيات كَالحْكمِ بِأَن الشَّمْس نيرة وَالنَّار حارة أَو الْبَاطِنَة وَتسَمى وجدانيات كَالحْكمِ بِأَن لنا خوفًا وغضبًا. انظر: شرح المقاصد، سعد الدين التفتازاني، ج١، ص٢٥، دار المعارف النعمانية – باكستان، ١٩٨١م.

فيضرب الشيخ مثالاً على هذا النظام البديع بالإنسان نفسه فيقول: «ينطق بوجوده تعالى وعظمته وسعته علمه وباهر ألوهيّته ما أودعه في الأشياء من الحكم التي اقتضت أن يوجد لك كبدًا تفرز الصفراء، وغددًا تفرز الريق، ومجرى للطعام، ومجرى للنفس، ومصفاة في الأنف للهواء، وسدادات تفتح من جانب واحد بغاية الإحكام في الأذين والبطين والشرايين والأوردة. وانظر كيف جعل لك منفذًا للفضلات وبجانب قناة البول قناة أخرى للمني بعد عمل حوض للبول يجتمع فيه وكليتين تفرزانه من الدم، ثمّ جعل لك أنثى، وهيأها لما يراد منها فخلق فيها رحمًا وثديًا. إلخ. وانظر إلى حكمة: الأصابع والأظافر واليدين والرجلين والمفاصل وطبقات العين وخلق اللسان في الفم، إلى غير ذلك مما يبهرك إن كنت ذا وجدان صحيح».[1]

إذن الكون فيه نظام وإتقان وإحكام، وهذه مقدمة ضروريّة مسلمة من الملحدين أنفسهم.

أمّا المقدمة الثانية، وهي أنّ كلّ أثر يدل على مؤثر؛ فالمبنى له بان، والضرب له ضارب، ولا يمكن أن يصدق العقل بأنّ مبنيًّا بنى نفسه أو وجد هكذا بغير بان، وقد وقف الشيخ مع هذه المقدمة الضروريّة حتى تتجلى أمام كلّ معاند، فتخرج النتيجة بيضاء نقيّة لا يجادل فيها اثنان ولا يتناطح فيها كبشان، يقول

(١) مقالات وفتاوى الدجوي، ج٢، ص٢٦٧

الدجوي: «كان ينبغي ألا يختلف الناس في هذه العقيدة؛ لأنّ دلالة الأثر على المؤثر، والنظام على المنظم، والفعل المحكم على الحكيم بدهيّة[١]».[٢]

ويقول أيضًا: «إنّ وجود الله ضروري عند كلّ عاقل، فإنك إذا رأيت بناء شامخًا على أحسن وضع وأتمّ نظام، قد نسقت أشجاره، ودبرت أنهاره، وهيئت مساكنه على ما تقتضيه الحكمة وتوجيه الحاجة، فهل يمكنك أن تصدق أنّ هذا البناء بلا بان، وذلك النظام بلا منظم، فإذا جوّزت أن يوجد بناء بلا بان ونظام بلا منظم خرجت من زمرة العقلاء، وسقطت عن رتبة الخطاب والمكالمة».[٣]

فمن أنكر دلالة الأثر على المؤثر فمحكوم عليه بالجنون، وليس هذا من ابتداع الشيخ الدجوي، فقد قال الإمام الرازي: «الذين قالوا باحتياج المحدث إلى مؤثر، علم ضروري، قالوا: والذي يدل عليه أنّ كلّ من رأى بناء رفيعًا وقصرًا مشيدًا، اضطر إلى العلم بأنّ له بانيًا وصانعًا، حتى إنّ من جوّز حدوث ذلك البناء، لا عن فاعل وبان: كان محكومًا عليه بالجنون».[٤]

---

(١) البديهيات هِيَ قضايا يحكم الْعقل بهَا بِمُجَرَّد تصور طرفيها كَالْحكمِ بِأَن الْوَاحِد نصف الِاثْنَيْنِ والجسم الْوَاحِد لَا يكون فِي آن وَاحِد فِي مكانين. شرح المقاصد، ج١، ص٢٥

(٢) مقالات وفتاوى الدجوي، ج١، ص٢١

(٣) المصدر السابق، ج١، ص٤٦١

(٤) الأربعين في أصول الدين، فخر الدين الرازي، ص١٢٨، تحقيق الدكتور: أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليّات الأزهريّة، الأولى، ١٤٠٦هـ.

وهي نفس العبارة التي كثيرًا ما يرددها الشيخ الدجوي رحمه الله حين يقول: «من أنكر وجود الله لم يزد على أن قال عن نفسه إنّه مجنون، فإننا إذا رأينا كلمة مركبة من ثلاثة أحرف لم نستطع أن نقول إنّها مكتوبة من غير كاتب. فما بالك بهذا الكون الباهي بسمائه وأرضه ونجومه وأقماره وشموسه وكلّ عجائبه! ولكن من عرف أنّ الإنسان مستعد لكلّ شيء حتى أفظع أنواع الجنون لم يستغرب ذلك منه».(١)

والذي يدل على ضروريّة هذه المقدمة عند الشيخ رحمه الله، أنّ الحيوان الأعجم يعرف أنّ الأثر يدل على مؤثر، ولذلك يقول: «إنّ الحمار إذا ضرب التفت؛ لأنّه لا يتصور أن يوجد ضرب بلا ضارب، فمن تصور أن يوجد أثر بلا مؤثر ونظام بلا منظم، وأشياء متقنة كلّ الإتقان بلا صانع حكيم، فهو أجهل من الحمار».(٢)

ثمّ يقرر الشيخ بعد هاتين المقدمتين الضرويتين «أنّ المادة ليس فيها حياة ولا إدراك، ومن البدهي أنّ فاقد الشيء لا يعطيه، فلا يمكنها أن تعطي عبدها ما ليس عندها».(٣)

وهو ما يؤكد عليه بقوله: « هل كان يمكن للمادة الجاهلة التي تجتمع كيفما اتفق أن تكون معدة وأمعاء ورئتين وكليتين، وأن تخلق في المعدة ما تحتاج إليه من العصارة المعدية وبجانبها العصارة البنكرياسيّة، ثمّ تخلق جهازًا

---

(١) مقالات وفتاوى الدجوي، ج١، ص٤٥٦

(٢) المصدر السابق، ج١، ص٤٥٨، ٤٥٩

(٣) المصدر السابق، ج١، ص٢٤

للتناسل وتعلم أنّ ذلك وحده غير كاف فتخلق خلقاً آخر من جنس الخلق الأول وتخلق فيه جهازًا للتناسل يخالف الجهاز الأول ليكون الأول فاعلاً والثاني قابلاً. ثمّ تخلق فيه محلاً للجنين وتدبر له كيفية غذائه مادام في الرحم وتخرج له ثديًا يغذيه بعد خروجه وتهيء له لبنًا يجري فيه يناسب حاله وضعفه في طفولته ويجعل الرجل مجردًا عن ذلك وقد ألقى على كلّ منهما الشهوة الشديدة إلى الآخر لينساقا إلى ما خلقا له وليحفظ النوع من الفناء والدثور».[1]

وإذا كان هذا مستحيلاً فالنتيجة هي أنّ: هذا الإتقان والإحكام من صانع مختار، ولا يمكن أن يكون من عمل الطبيعة، وهي النتيجة التي تؤدي إليه المقدمتان الضروريتان، وهذا ما يؤكد عليه الشيخ بقوله: «فإنّ الطبيعة لا تعمل إلا عملا واحدًا، ووجود الأعمال المتنوعة من خصائص الاختيار والإرادة».[2]

والصانع المريد المختار هو الله، وهو الذي خلق العالم على هذا الإتقان المبهر، والإحكام الذي يدهش العقول.

الدليل الثّاني: وهو الأدلّة الكونيّة

وهو المسلك الذي يحث الشيخ الدجوي عليه، ويراه خاليًا عن التعقيد، بل هو طريقة القرآن الكريم كما يرى الشيخ، ولذلك يقول: «لو سلك علماء الكلام مسلك القرآن في الاستدلال على الله تعالى لقربوا الطريق، وهزوا

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص٢٦٧

(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٢٦٨

القلوب بما أودع في الفطر وغرس في النفوس حتى التحق بالبدهيّات التي لا تحتاج إلى الالتفات إليها وانتباه النفس لها».[1]

والحقيقة أنّ المتكلمين سلكوا هذا الطريق، وكان أحد الحجج التي استدلوا بها على وجود الله تعالى، ويكفي أن نشير هنا إلى أنّ أبا الحسن الأشعري إمام أهل السنة قد استخدم هذا الدليل[2]، واستخدمه أيضًا الإمام الرازي في كتبه العقديّة[3]، وفي تفسيره مفاتيح الغيب[4]، وأراه سهو قلم من الشيخ غفر الله لنا وله.

وتصوير هذا المسلك ملخصه: أنّ من تدبّر في أمر نفسه، والكون من حوله، جزم بأنّ له صانعًا حكيمًا. وقد فصّل الشيخ هذا المسلك فتحدّث عن الإنسان، والحيوان والكواكب، ومن ثمّ فإنّ الحديث سيتوجه إلى ما فصّله الشيخ.

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص٤٦٢

(٢) انظر: اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، أبو الحسن الأشعري، ص ١٧-١٩، تحقيق د. حمودة غرابة، جماعة الأزهر للتأليف والترجمة والنشر ١٩٧٥م.

(٣) انظر على سبيل المثال: الأربعين في أصول الدين، الرازي، ص١٢٩ - ١٣١

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، تفسير قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ». [البقر: ٢١، ٢٢]

أولاً: دلالة الأنفس: فيدل عليه قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات:٢١]

فإذا نظر الإنسان إلى نفسه وأدرك خصائص أعضائه، وأنّ كلّ عضو موكول بعمل معين جزم بأنّه مخلوق مصنوع، وقد خلق الإنسان من نطفة، وإنّ تحوّل النطفة إلى إنسان عاقل معجزة، لو لم يألفها الإنسان وسمع بها ما صدقها، ولكن الإلف يستر المعجزة، ومن ثمّ فإنّ تحول النطفة إلى إنسان عاقل دليل على أنّ له خالقًا، خاصة أنّه لا يوجد تشابه، فمن هذه النطفة الذكر والأنثى والأبيض والأسود والجميل والقبيح، ولا يكون هذا التنوع إلا من أثر قدرة مطلقة. ولنستمع إلى الشيخ وهو يقول: «إننا غارقون في الآيات، ولكننا لا نلتفت إليها لكثرتها وتكررها، حتى أصبحت مألوفة معتادة، وكلّ ما تكررت مشاهدته سقط وقعه... ولو قال لك قائل: أنّه رأى نقطة ماء قذرة لا يعبأ بها. ثمّ رأى رجلاً سميعًا بصيرًا مناضلاً مجادلاً فيلسوفًا قد خرج من تلك النقطة الحقيرة، لعدتته مصابًا في عقله، أو هازئًا بك غير محترم لعقلك. ولكنّك تشاهد ذلك الذي عددته خرافة أو جنونًا كلّ يوم، فما ذلك الشجاع الباسل، ولا ذلك العالم المتفنن، ولا تلك الغواني الفاتنات، إلا من نقطة ماء قذرة تعافها النفس وينفر منها الطبع نقلتها القدرة الآلهيّة في تلك الأطوار العجيبة حتى جعلتها من نوع البشر ذي السمع والبصر، فسبحان القادر الذي

لا تحـد قدرتـه ولا تتنـاهي عظمتـه ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: ١٠٠]».(١)

ثمّ أخذ الشيخ يعدد وظائف الأعضاء البشريّة مستعينًا بمنجزات علـم الطب فيقـول: «إنّ في الجسم الإنـساني أكثـر مـن مـائتي عظـم، ولكـلّ منهـا شـكل مخصوص يناسب ما نيط به وما خلق لأجله، ولـولا ذلـك لتعطلـت حركاتنـا التي نأتيها كلّ وقت وساعة. ثمّ انظر كيف خلق لك الكبد والمعـدة والـرئتين والكليتين إلخ. إلخ، وكيف ناط كلّ واحد منها بعمل مخـصوص، ثـمّ أوجـد لك الفم وأنبت فيه الأسنان المختلفة ليقع بهـا الهـضم الأول، ثـمّ جعـل لـك غطاء يغطى مجرى النفس عند البلع، وجعل لك مجرى مخـصوصًا للطعـام والشراب وآخـر للـنفس، وجعـل للمعـدة بـابين للـدخول والخـروج، وأمعـاء دقيقة وأمعاء غليظة، ثمّ جعل سـبيلين بعـد ذلـك لإخـراج الفـضلات التـي لـو بقيت في الإنسان لأهلكته».(٢)

فكلّ عضو له وظيفته، بل إنّ الإنسان لا يلتفت إلى أشياء قد يراهـا صـغيرة أو لا يخطر على بالـه وظيفتهـا، ويـضرب الـشيخ عـلى ذلـك مثـالاً بخفـن العـين والأهداب، يقول الشيخ: «ثمّ انظر كيف كـان الجفـن يمنـع الأذى عـن العـين والغبـار والـدخان والـضوء عنـد الإقفـال، والأهـداب تمنـع الغبـار، وتـدخل الضوء عند الحاجة إليـه كـما في أوقـات الريـاح، وقـد قـال بعـض الفلاسـفة:

---

(١) مقالات وفتاوى الدجوي، ج٢، ص١٠١ باختصار.

(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٩٩

"يكفيني هدب العين في الدلالة على الله". ثمّ انظر كيف ركبت العين من ست طبقات بديعة الصنع غريبة الترتيب وهي: القرنيّة والعنبيّة والعنكبوتيّة والشبكيّة والمشيميّة والصلبة. وهذا شرح طويل لا يسعه هذا المقال». [1]

وفي النهاية يقرر الشيخ: أنّ «الإنسان إذا تفكر في نفسه استنارت عنده آيات الربوبيّة، وسطعت له أنوار اليقين، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب، وانقشعت عنه ظلمات الجهل. فإنّه إذا نظر في نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات، وأدلّة التوحيد على ربه ناطقات شاهدة لمدبرة، دالة عليه». [2]

ثانيًا: **دلالة الحيوان**:

فالتنوع في عالم الحيوان، من أصغرها إلى أكبرها دليل على وجود خالق قادر حكيم؛ يقول الشيخ: «ولا بأس أن نقول بعد هذا كلمة صغيرة عن السلسة الحيوانيّة التي تبتدئ بتلك المكروبات المتناهية في الصغر: فقد ذكروا أنّ آلاف الآلاف منها تعيش في نقطة ماء صغيرة وتنموا هناك وتتكاثر وتموت كما تعيش حيوانات البرقى القفار. ويقولون: إنّ هذه الحيوانات لا يساوى هيكل الواحد منها جزءًا من ١٨٧ مليون جزء من القمحة. ومع هذا الصغر المتناهي لهذه الحيوانات كان لكلّ حيوان منها ما يهضم به طعامه وما تتم به حياته من الأعضاء الباطنة والظاهرة، فإذا تناهى الحيوان في الصغر فماذا عسى أن تكون تلك الأعضاء؟!». [3]

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص١٠٠

(٢) المصدر السابق، ج٢، ص١٣٩

(٣) المصدر السابق، ج٢، ص٩٦، ٩٧

لا شك أنّ هذه الدقة وراءها خالق عظيم، وليس هذا فقط فإنّ التنوع في المخلوقات دليل على طلاقة القدرة الإلهيّة؛ يقول الشيخ: «فانظر رعاك الله إلى هذه السلسلة العجيبة التي لا تتقيد بقيد ولا تنضبط بحال. فإن قلنا: لا بدّ لها من فقار كالبقر والطير والضفادع والسمك، ينقضه أننا وجدنا الحياة بلا فقار فيما هو أسفل منها كالعنكبوت والحشرات الدنيا. وإن قلنا إنّ الحياة لا بدّ فيها من قشور في ظهر الحيوان، رأينا الحيوانات الهلاميّة لا قشور فيها. وإن قلنا إنّه لا بدّ من رؤوس، كذبتنا الحيوانات التي ليس لها رؤوس. وإن قلنا إنّه لا بدّ أن يكون الحيوان صلب الجسم، ورد علينا النقاعيّات والاسفنجيّات، إلى آخر ما لا يمكننا شرحه. فها أنت ذا ترى الحياة العامة شاملة لا تتوقف على حال من الأحوال فلا يصد عنها بر ولا بحر ولا هواء ولا رخاوة في الجسم ولا عدم الرأس ولا فقد الفقرات، ولا قلّة الحواس. ثمّ انظر بعد هذا تجد حيوانات يقتلها الأكسجين وتعيش تحت التراب، أو نقول لا يمكنها أن تعيش في الهواء الخالص، وحيوانات لا تعيش إلا في الهواء كالطيور، وأخرى لا تعيش إلا في الماء كالأسماك. فسبحان القادر على كلّ شيء ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان: ٢] ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧﴾ [السجدة: ٧] ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ

﴿٤﴾ [الملك:٣-٤] ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزُّمَر:٦٧] **"سُبْحَانَك لَا نُحْصِي ثَنَاء عَلَيْك انْت كَمَا أَثْنِيَن عَلَى نَفْسِك"**».[1]

ثالثًا: **دلالة الكواكب**:

ويستعين الشيخ في هذا المسلك أيضًا بمنجزات العلوم التجريبيّة، التي تدلّ على سعة الكون وإتقانه، ومن ثمّ فإنّ له خالقًا؛ يقول الدجوي: «فاسمع الآن ما يقوله أرباب العلوم الحديثة الذين لا يروون عن رسول ولا يقولون بالروايات والأخبار، ولكن بالمشاهدات التي أوصلتهم إليها آلاتهم الحديثة مثل التلسكوب "المنظار المقرب" والشعاع الطيفي الذي جعل ما كان مغيبًا خفيًّا مشاهدًا محسوسًا. وقد اصطلحنا في بيان المسافات البعيدة على ذلك المقياس الذي نعرفه في عباراتنا العصرية أعني الكيلو متر، ولكنّهم رأوا أن ذلك المقياس ضئيل جدًا لا يغني فتيلاً في موضوع بيان سعة العوالم وبيان أبعادها. فماذا جعلوا من المقاييس؟ جعلوا المقياس لذلك شيئًا يسمى برسكًا، وما البرسك؟ هو مقدار سير النور مدة ثلاث سنوات وسدس، وما مقدار ما يسيره النور في سنة؟ أو نقول: وما عي السنة النوريّة؟ السنة النوريّة أمر يفوق الوصف ولا يكاد يصدقه العقل، فإنّ النور يسير في الثانية ٣٠٠ ألف كيلو متر. وإياك أن تقول أنّ ذلك في الدقيقة وإنّما هو في الثانية التي هي جزء من ستين جزءًا من الدقيقة. فما بالك إذا جرى سنة ثمّ ثلاث سنين وسدس، وهو ما جعلناه مقياسًا. فانظر الآن ما يكتبونه عن بعض السدم البعيدة عنا. يقولون: إنّ سديم (ماجلون) يبعد عن الأرض ٣٥ ألف

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص٩٧، ٩٨

برسك، أي نحو ١١٠ ألف سنة نوريّة، ...وقد قال بعضهم عندما أدهشته سعة العوالم: إنّ هذه العوالم لا نهاية لها. ألا يعرفنا ذلك صغرنا وضآلة أمرنا وفهمنا معنى قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يس:٣٦] **وقوله**: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدَّثر:٣١] **وقوله**: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [النحل:٨]».[1]

ويقول الشيخ: «وقد ذكروا أنّ أرضنا هذه أصغر من الشمس بألف وأربعمائة مرّة. وذكروا أنّ الشعري أضوأ من شمسنا هذه بنحو خمسين مرة، وأنّ بنات نعش أضوأ منها بنحو ثلاثمائة مرة، وأنّ السماكين أضوأ منها بنحو ستمائة مرة، ولكنّ بعدها الشاسع جعلنا منها إلا الضوء الضئيل، أمّا شمسنا هذه فهي قريبة منا قربًا نسبيًّا، فإنّ الضوء يأتينا منها في مدة ثماني دقائق وثماني ثانية».[2]

وما كان هذا البعد بيننا وبين الشمس إلا لحكمة، يقول الشيخ: «وقد اقتضت حكمة الحكيم أن يجعل الأرض على هذا البعد، لأنّه لو جعلها بعيدة جدًا لم ننتفع بحرارة الشمس ولا ضوئها هذا الانتفاع. وإذًا لا يكون على الأرض

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص٩٢-٩٤، باختصار.

(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٩٤، ٩٥

نبات ولا حيوان. ولو جعلها قريبة من الشمس جداً لكانت كنار جهنم، فلم يعش عليها حيوان ولا إنسان. فسبحان الحكيم العليم». [١]

والخلاصة، أنّ وجود الله تعالى من الأمور البدهيّة التي ينبغي ألا يجادل فيه أحد؛ ويكفي الإنسان أن ينظر في نفسه أو ما حوله، فسيجزم أنّ هذا النظام البديع له صانع وخالق.

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص٩٥

المبحث الثاني: موقف الشيخ الدجوي من السلفيّة المعاصرة

لم يترك الشيخ الدجوي الفرق المعاصرة التي أطلّت برأسها على الأمّة الإسلامية بفكرها دون بحث أو دراسة أو إبداء الحكم الشرعي في شذوذاتها، فالشيخ مهتم بواقع الأمّة وما يطرأ عليها من أفكار؛ ومن ثمّ فقد كتب في السلفيّة الحاضرة وفيما أثارته من أفكار وما عرضته من آراء، فقد كتب رحمه الله في موضوع إثبات الجهة والمكان لله تعالى، وفي موضوع تقسيم التوحيد إلى إلهيّة وربوبيّة وما يترتب عليها من مخاطر التكفير.

ويعني بالسلفيّة الحاضرة أو المعاصرة فرقة الوهابيّة التي ظهرت في القرن الثاني عشر على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي[1]، وقد دعا إلى إحياء عقيدة السلف الصالح، وقلّد في عقيدته الإمام ابن تيمية.

---

(١) هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد التميمي، ولد عام ١١١٥ ه، الموافق عام ١٧٠٣م، وتوفي عام ١٢٠٦ هـ الموافق عام ١٧٩٢م. له مصنفات أكثرها رسائل، منها: كتاب التوحيد، ورسالة: كشف الشبهات، وأصول الإيمان، وغيرها. اختلف فيه الناس فمن مادح له، وذام إياه، وقد غالا فيه بعض أتباعه حيث جعله ندًا للنبي ﷺ؛ فقارن بين دعوته ودعوة رسول الله ﷺ من أحد عشر وجهًا. انظر: (محمد بن عبد الوهاب عقيدته السلفية ودعوته الإصلاحية وثناء العلماء عليه، أحمد بن حجر آل بوطامي، ص٧١ – ٧٤، مطبعة الحكومة بمكة المكرمة، ١٩٧٥م)، وقد غالا فيه بعض المعارضين له حيث رأوا أنّه قرن الشيطان الذي حذّر منه النبي ﷺ عن ابن عمر قَالَ: ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَأْمِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي يَمَنِنَا» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَفِي نَجْدِنَا؟ قَالَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَأْمِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي يَمَنِنَا» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَفِي نَجْدِنَا؟ فَأَظُنُّهُ قَالَ فِي الثَّالِثَةِ: «هُنَاكَ الزَّلاَزِلُ وَالفِتَنُ،

فلم تكن مناقشة أفكار السلفيّة المعاصرة من باب الترف العقلي؛ وإنّما اضطر الشيخ للكتابة فيها من باب حفظ عقائد المسلمين وخاصة العوام منهم، والرد على أهل البدع الذين أظهروا بدعتهم وحاولوا نشرها بين المسلمين؛ يقول الشيخ رحمه الله: «لكننا مضطرون لتفنيد آرائهم الزائفة وأقوالهم الباطلة؛ لنحفظ عقائد العامّة وأشباه العامّة، الذين يتبعون كلّ ناعق ويتأثرون بكلّ ما يسمعون».(١)

وهي لفتة مهمة في منهج الشيخ رحمه الله، إذ لم يكن يكتب إلا في الموضوعات التي تمس المسلم، ويرى خطرًا محدقًا بعقيدته، والسبب الثاني: الذي من أجله تصدى الشيخ للسلفيّة المعاصرة وأفكارها، هو ما أحدثته هذه الأفكار من بلبلة في المجتمع؛ ولذلك كانت تأتيه الأسئلة عن هذه العقائد ومدى مشروعيتها، وكان لزامًا عليه أن يردّ؛ فكاتم العلم ملعون. ولم يكن الشيخ كذلك من هواة بث الفرقة بين المسلمين؛ ولذلك يقول: «ولسنا نريد بكلّ ما نكتب غير ألا يتنازع المسلمون».(٢)

وَبِهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ». (رواه البخاري، ك الفتن، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «الفِتْنَةُ مِنْ قِبَلِ المَشْرِقِ»، ج٩، ص٥٤) من هؤلاء أحمد الغماري الذي يقول: «ولمّا طلع قرن الشيطان بنجد في أواخر القرن الحادي عشر، وانتشرت فتنته، كانوا يحملون الأحاديث عليه وعلى أصحابه». نقلاً عن: دعاوي المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، عبد العزيز بن محمد بن علي آل عبد اللطيف، دار الوطن، الرياض، الأولى، ١٤١٢هـ.

(١) مقالات وفتاوى الدجوي، ج١، ص٣٣٥

(٢) المصدر السابق، ج١، ص٢٥٨

فالشيخ حريص على وحدة المسلمين، وليس ممن يروّجون الفتن.

المطلب الأوّل: السلفيّة المعاصرة وإثبات الجهة والأجزاء والأبعاض لله تعالى وموقف الشيخ الدجوي

جاء كلام الشيخ على موضوع تنزيه الله تعالى عن المكان والجهة ردًا على من أرسل إليه رسالة يثبت فيها الجهة والمكان باعتبار أنّ هذه العقيدة هي التي دلّ عليها الكتاب والسنّة!

يقول الشيخ رحمه الله: «الكلام على سؤال الأستاذ محمود علي المدرس بمدرسة المنتزة: قال حضرته ما ملخصه: إنّ الله في السماء بمعنى جهة العلو، ويدلّ لذلك آيات كثيرة وأحاديث عديدة».(١)

وقبل الولوج مع الشيخ في رده على هؤلاء أود أن ألفت النظر إلى أنّ الشيخ رحمه الله أقام الحجة العقليّة التي تفيد تنزيه الله تعالى عن مماثلة الحوادث أو مشابهتها من أيّ جهة؛ يقول الشيخ رحمه الله: «علمنا في أوّل ما علمنا تلك القضيّة العقليّة مع برهانها الواضح فقلنا: تجب مخالفته تعالى للحوادث، لأنّه لو ماثلها لكان حادثًا مثلها لكنّ التالي باطل، فبطل المقدم».(٢)

ويقول أيضًا: «إنّ الله تعالى مخالف لنا؛ لأنّه لو ماثلنا لكان حادثًا مثلنا، وعاجزًا مثلنا، ومتغيرًا مثلنا، وفانيًا مثلنا، إلى آخر ضروب المماثلات، وهو دليل واضح لا يحتاج إلى كبير تأمل؛ لأنّه راجع إلى ما هو مركوز في الفطر

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص١٨٣

(٢) المصدر السابق، ج١، ص١٨٧

من أنّ ما ثبت لأحد المثلين ثابت للآخر، فهذا هو ما جاء به الإسلام في أبسط تعاليمه وأوّل أصوله، وقد علمت أنّ الفطرة تشهد له وتنطق به، إلا أن تصاب بآفة تغيرها عن خلقتها فتنحرف بها عن الجادة». [١]

ثمّ يتطرق الشيخ إلى الخطأ المنهجي الذي وقع فيه هؤلاء الذين ينسبون أنفسهم إلى السلف الصالح وهو أنهّم جمعوا الآيات والأحاديث التي يفيد ظاهرها التشبيه في صعيد واحد حيث بهذا الصنيع يرسخون الصورة الجسميّة في ذهن المتلقي، وقد ذكر الله تعالى هذه الآيات متفرقة وكذلك رسوله الكريم ﷺ ذكرها في مواطن شتى وفي مواقف متنوعة؛ بل تحتف هذه الآيات وتلك الأحاديث بالقرائن التي تخرجها من ظاهرها المتبادر إلى الذهن، يقول الشيخ رحمه الله: «ما كان ينبغي أن تذكر هذه الآيات المتشابهة (مجتمعة) وكذلك أحاديث الصفات، فإنّ هذا يُلبس على الناس ويدع في نفوسهم أثرًا سيئًا عندما تمتلئ من تلك الظواهر التي لم تذكر في الكتاب والسنّة إلا في مقامات معدودة، وربما احتف بها من القرائن ما يوجب صرفها عن ظاهرها». [٢]

ويقول أيضًا: «وذكر تلك الآيات والأحاديث مجتمعة بدون تعقيب عليها يؤثر في نفوس العامة أثرًا لا يكاد يمحى، وقد شنّع الغزالي على من يفعل ذلك غاية التشنيع في كتابه إلجام العوام عن علم الكلام». [٣]

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص٢٤٠

(٢) المصدر السابق، ج١، ص١٨٤

(٣) المصدر السابق، ج١، ص٣٢٥، ٣٢٦

والشيخ رحمه الله تعالى محق في أنّ حجة الإسلام الغزالي قد شنّع على بعض المؤلفين الذين جمعوا ما تفرق وجعلوه في أبواب فأساءوا أيما إساءة؛ يقول الغزالي رحمه الله: «لا يجمع بين متفرق، ولقد بعد عن التوفيق من صنّف كتابًا في جمع الأخبار خاصة ورسم في كلّ عضو بابًا فقال: باب في إثبات الرأس وباب في اليد إلى غير ذلك، وسماه: كتاب الصفات. فإنّ هذه كلمات متفرقة صدرت من رسول اللهّ ﷺ في أوقات متفرقة متباعدة اعتمادًا على قرائن مختلفة تفهم السامعين معاني صحيحة، فإذا ذكرت مجموعة على مثال خلق الإنسان صار جمع تلك المتفرقات في السمع دفعة واحدة عظيمة في تأكيد الظاهر وإيهام التشبيه».[1]

وليس الغزالي والدجوي هما فقط من حذرا من جمع هذه الآيات والأحاديث في مكان واحد بل هو دأب أهل السنّة والجماعة، يقول التاج السبكي: «لم ترد (هذه الألفاظ) فِي الشَّرِيعَة مجَمْمُوعَة بل مفرّقة وَفِي كل مَكَان قرينَة ترشد إِلَى المُرَاد فَإِذا جمعهَا جَامع أضلّ ضلالاً مُبينًا».[2]

بل لقد ذهب الخطابي إلى أنّ إثبات اليد بمعنى الصفة لله لا يجوز أن يتوهم أنّ لهذه اليد أصابع أو ساعد أو أنامل لما فيه من ترسيخ المعنى المادي،

---

(١) إلجام العوام عن علم الكلام، حجة الإسلام الغزالي، منشور ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي، ص٣١٢، دار الفكر – بيروت، الأولى / ١٤١٦ هـ.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، ج٣، ص١٤٣، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الثانية، ١٤١٣هـ.

وفي هذا يقول: «وَلَيْسَ مَعْنَى الْيَدِ فِي الصِّفَاتِ، بِمَعْنَى الجْارِحَةِ حَتَّى يُتَوَهَّمَ بِثُبُوتِهَا ثُبُوتُ الْأَصَابِعَ، بَلْ هُوَ تَوْقِيفٌ شَرْعِيٌّ، أَطْلَقْنَا الِاسْمَ فِيهِ عَلَى مَا جَاءَ بِهَ الْكِتَابُ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَشْبِيهٍ».[1]

فقد حرص أهل السنّة من أوّل وهلة على هذه الإجراءات التي تحد من ترسيخ الجانب المادي عند الحديث على هذا الموضوع المهم.

والسبب في هذا أنّهم يدركون أنّ معرفة حقيقة الذات الإلهيّة مستحيل؛ وذلك ناشئ عن قصور الإنسان عن إدراك كنه ذاته فكيف يدرك كنه الذات الإلهيّة؟!

وهذا ما يوضحه الشيخ الدجوي رحمه الله حيث يقول: «ولست أدري كيف يخوضون في هذا وهم لم يعرفوا حقيقة أرواحهم التي يحيون بها! فكيف يعرضون للكلام فيمن ليس كمثله شيء».[2]

ويرجع قصور العقل عن معرفة كنه الله تعالى أنّه لا يحيط علمًا إلا بما هو حادث، والله تعالى ليس بحادث وليس بينه وبين هذا العالم مناسبة أو مشاكلة؛ وفي هذا يقول الشيخ: « أمّا معرفة حقيقته (تعالى) والوقوف على كنهه فهو من أوّل المحالات، فإنّه ليس بيننا وبينه مشاكلة ولا مناسبة، فكيف

---

(١) أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري، الخطابي، ج٣، ص١٨٩٩، تحقيق: د. محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود، جامعة أم القرى (مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي)، الأولى، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨م.

(٢) مقالات وفتاوى الشيخ يوسف الدجوي، ج١، ص١٨٦.

يمكن أن تحيط به العقول، وهي لا تحيط إلا بما شاركها في نوع أو جنس أو فصل مما هو حادث مثلها! فهو بكلّ شيء محيط، ولا يحيطون به علمًا».(١)

تقرير مذهب السلف والخلف والسلفيين المعاصرين في الآيات الموهمة للتشبيه

يذهب كثيرون من المعاصرين إلى أنّ مذهب السلفيين المعاصرين هو مذهب السلف وأنّ الخلف مخالفون للسلف في العقيدة، وهذا ما كان واضحًا أمام الشيخ الدجوي رحمه الله فقرر مذهب السلف والخلف والسلفيين موضحًا الفروق الجوهريّة بين مذهب السلفيين المعاصرين والسلف والخلف، وفي هذا يقول: «السلف في آيات الصفات وأحاديث الصفات يفوضون بعد التنزيه، وأنّ الخلف يؤولون خوفًا من التشبيه، فكلّهم متفقون على التنزيه، وإنمّا الفرق بينهما أنّ علماء الخلف يعينون المعنى المراد فيقولون مثلاً في قوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الفتح: ١٠]: المراد باليد القدرة، والسلف يفوضون بعد التنزيه فيقولون: إننا ننزهه تعالى عن الجارحة ولا نعين شيئًا خاصًا من المعاني التنزيهيّة كما يفعل علماء الخلف. أمّا أولئك المتفيهقون الذين يبرأ منهم السلف والخلف جميعًا، فهم الكرّاميون لا سلفيون ولا خلفيون».(٢)

أي أنّ سلفهم هم الكرّامية المشبهة المجسمة، ويختار الشيخ طريقة السلف عقيدة له فيقول: «على أني أختار مذهب السلف وأدين به، فأحاديث

(١) المصدر السابق، ج١، ص١٨٧

(٢) المصدر السابق، ج١، ص١٨٤، ١٨٥

الصفات ليست على ظاهرها، وأنّ لها تأويلات تليق بجلال الله تعالى، ولا نقطع بتعيين تأويل منها، بل نكل ذلك إلى العليم الخبير، ولكن لا بدّ من التنزيه على كلّ حال». (١)

وقد صوّر الشيخ رحمه الله مذهب السلفيين المعاصرين حين ردّ على رسالة أحدهم (٢) التي نشرها في إحدى مقالاته وفيها: «إنّ مذهب السلف ﷺ التصديق بآيات الصفات وما صح من أحاديثها، وإمرارها على ظاهرها مع نفي التشبيه والتكييف عنها، فلا يجوز صرفها عن ظاهرها؛ لأنّ فيها تعطيلاً لما جاء في الكتاب والسنّة من صفاته تعالى، وكذلك لا يجوز تكييفها وتشبيهها بصفات المخلوقين لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١] وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤] فضلاً عن دلالة العقل وإجماع الأمّة على مخالفته تعالى للحوادث، فكلّ ما وصف الله تعالى به نفسه من الوجه واليدين والاستواء على العرش، أو وصفه به رسوله ﷺ كنزوله إلى سماء الدنيا كلّ ليلة، فهو عندهم حق على حقيقته التي تليق به من غير تشبيه ولا تكييف». (٣)

ويستدل هذا المرسل على هذا المذهب بقوله: «فقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥] الصحيح عندهم ما نقله الإمام البخاري في

(١) المصدر السابق، ج١، ص٢٠٩

(٢) وهو الشيخ عبد الغفار علي المسلاوي.

(٣) مقالات وفتاوى الشيخ يوسف الدجوي، ج١، ص ٢٠٢

صحيحه وغيره عن مجاهد من أنّ معناه: علا أي علوًا بلا تمكن على العرش لا نعقل كيفيته، كما قال مالك الإمام وقد سُئل عن كيفيّة استوائه على العرش: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. فهو سبحانه فوق سماواته على عرشه، وإنّما هو تعالى عال على خلقه بائن منهم بلا حد ولا صفة، فقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [المُلك:١٦] يعني نفسه، لا يريد _تعالى وتقدس_ أنّ السماء ظرف له، وإنّما معناه أنّه فوقها على العرش بلا تمكن ولا تكييف».[١]

ويمكن تلخيص ما ذهب إليه هؤلاء في الآتي:

١- يذهب هؤلاء إلى إثبات الظواهر من الآيات الموهم ظاهرها التشبيه كاليد والوجه والقدم والساق وغيرها.

٢- هذه الظواهر على حقيقتها، فاليد يدٌ حقيقيّة، والنزول نزول حقيقي وهكذا.

٣- يثبت هؤلاء الجهة والمكان لله تعالى فهو في جهة الفوق مستو على العرش.

٤- يثبت هؤلاء لله تعالى كيفًا مجهولاً مستدلين على ذلك بما روي عن الإمام مالك" والكيف مجهول".

مناقشة الشيخ لأصحاب هذا النوع من الإثبات

كانت ردود الشيخ رحمه الله منها ما هو رد على المنهج، ومنها ما هو رد على عقائد معينة.

---

(١) أساس التقديس، الرازي، ص٦٧، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، ١٩٩٥م.

أمّا رده على المنهج فيثبت أنّ إثبات الظواهر القرآنيّة في مسألة الآيات الموهمة للتشبيه يوقع في إشكاليّة أكبر فحواها: أنّ القرآن الكريم ذكر يدًا ويدين وأيديًا، فذكرها مفردة ومثناة ومجموعة، وإذا رجحتَ واحدة فقد أوّلت وأخرجت اللفظ عن ظاهره المتبادر إلى الذهن، أو يلزم أن تثبت لله أيديًا كثيرة وأعينًا كثيرة وتثبت له ساقًا واحدة وجنبًا واحدً، بمقتضى إثبات الظاهر؛ «وَلَا نرى فِي الدُّنْيَا شخصا أقبح صُورَة من هَذِه المتخيلة وَلَا أعتقد أَن عَاقِلا يرضى بِأَن يصف ربه بِهَذِهِ الصّفة».(١)

يقول الشيخ الدجوي: «وليت شعري أيثبت هؤلاء الجاهلون كلّ ما ورد من تلك الظواهر: فيثبتون له تعالى يدًا بمقتضى قوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠]، أم يدين بمقتضى قوله ﷺ: (كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ) أم أيديًا عديدة بمقتضى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾ [يس:٧١]، أو عينًا بمقتضى قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه:٣٩]، أم أعينًا بمقتضى قوله: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]، إلى غير ذلك، وهو كثير جدًا ألف فيه ابن الجوزي وغيره، أو يقولون: إنّ الله في السماء بمقتضى ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملُك:١٦]، أم على العرش بمقتضى قوله: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه:٥]، أم في الآفاق بمقتضى قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة:١١٥]، أم في أماكننا وأحيازنا بمقتضى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾ [الحديد:٤]».(٢)

---

(١) مقالات وفتاوى الشيخ يوسف الدجوي، ج١، ص١٨٥، ١٨٦

(٢) المصدر السابق، ج١، ص١٨٥، ١٨٦

ويلزمهم أيضًا إذا أثبتوا الظواهر، أن يخالفوا مذهبهم؛ يقول الشيخ الدجوي في رده على الشيخ محمد رشيد رضا: «إن كنت آمنت بظواهر الآيات فأنت مجسم ومشبه، وإن صرفتها عن ظاهرها المقتضي للتشبيه والتجسيم فلا خلاف بيننا وبينك لو كنت تعقل. أو نقول: إذا لم تفهم من الآية ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [المُلك:١٦] أنّه مستقر في السماء أو على العرش وقد أجريتها على ظاهرها كما تقول فما الذي فهمته منها؟ وما الذي آمنت به؟ وهل تستطيع أن تؤمن بما لا تعقل أو بما تعده محالاً؟ وهل يمكنك أن تفهمنا أنّك تؤمن بظواهر هذه الآيات مع كونك منزهًا فتجمع بين النقيضين أم هي كلمات قالها قائل فنقلها ناقل فاغترّ بها جاهل؟ إني لا يمكنني أن أعتقد إلا أنّك أحد رجلين: رجل يُلبس على الناس، أو رجل لا يفهم ما يقول، وإلا فما معنى قولكم: إنّه مستو على عرشه حقيقة وقولكم: إننا نؤمن بذلك على ظاهره، ثمّ تقولون: إنّكم غير مشبهين ولا مجسمين».(١)

وبهذا، فإنّ إثبات الظاهر في الآيات الموهمة للتشبيه متعذر، وأنّه يلزمهم التأويل مهما حاولوا الهروب منه.

السلفيّة المعاصرة ونشر كتب المجسمة وإشاعة عقائدها

عمل السلفيون لأوّل وهلة على نشر الكتب التي تنشر العقائد الفاسدة في عموم المسلمين، من جهةٍ وحدٍ وثقل وخلافه؛ وعملوا كذلك على كتابة مقدمات لها تشير إلى أنّ هذه الكتب هي المعبرة عن عقيدة السلف الصالح؛ من هذه الكتب التي أثارت ضجة نشر كتاب رد عثمان بن سعيد الدارمي على

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص٣٠٢، ٣٠٣

بشر المريسي العنيد، وفي هذا يقول الشيخ رحمه الله: «بمناسبة ما هو منظور الآن بين يدي جماعة كبار العلماء من البحث في كتاب الدارمي المسمى (رد الإمام الدارمي عثمان بن سعيد على بشر المريسي العنيد) وما صدّره الشيخ حامد من تلك المقدمة المجسمة التي تدعو إليه وتحمل على الحرص عليه. رأيت أن أكتب هذه الكلمة ليتبين أمر الكتاب: إنّ كتاب الدارمي المذكور هو شر الكتب ولا يجوز نشره بين الناس فإنّ فيه من العقائد الضالة ما ستسمعه. ولكن منينا بطائفة ليس لهم شغل في دروسهم ومساجدهم وما يختارون من الكتب والمطبوعات إلا ما يفسد عقائد العامة ويحدق القلق والتفريق. وقد نشروا قبل ذلك (كتاب العلو للذهبي) مع ما يكتبون من تلك المقدمات المرغبة المشوقة على نهج ما يفعل المبشرون. ولست أدري أذلك لقصد إضعاف العقائد وإفساد القلوب، أم ذلك للجهل المركب والماديّة التي غرقوا فيها ولم يعرفوا شيئا سواها؟».[١]

وهذا الكتاب طافح بالتجسيم والتشبيه، وهو ما عرضه الشيخ رحمه الله في ردوده، ومن ذلك قول الدارمي: «وَالله تَعَالَى لَهُ حَدٌّ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ غَيْرُه، وَلَا يجوزُ لأَحَدٍ أَن يتَوَهَّم لحدِّه غايةً فِي نَفْسِهِ، وَلَكِنْ يُؤْمِنُ بِالحَدِّ ويَكِلُ عِلْمَ ذَلِكَ إِلَى الله، ولمِكَانِهِ أَيْضًا حَدٌّ، وَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ، فَهَذَانِ حَدَّانِ اثْنَانِ».[٢]

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص٤٩١

(٢) نَقْضُ أَبِي سَعِيدٍ عُثْمَانَ بْنِ سَعِيدٍ عَلَى المَرِيْسِيِّ الجُهْمِيِّ العَنِيدِ فِيْمَا افْتَرَىٰ عَلَى الله - عز وجل - مِنَ التَّوْحِيدِ، أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارمي

ويعلق الشيخ على هذا النص بقوله: «وهذا نـص كلامـه ويتكـرر في الكتـاب مرات، وهو كلام لا يدع مجالاً لتبرئـة قائلـه مـن التجسيم. ومـا التجسيم إلا وثنيّة صريحة. فتبًا لمن يحاول هندسة معبوده هكذا بالذراع والباع». (١)

وبعد عرض الشيخ لجملة من النصوص التي تـدلّ عـلى التجسيم الـصريح، وتدلّ على حال الدارمي يوجه الـشيخ هـذا الـسؤال: «فـماذا تكـون حـال مـن يرتضي هذا الكتاب أو يوصي به أشد الوصية أو يطبعه للدعوة بما فيه؟». (٢)

ولم يقف السلفيون عند هذا الحد بل أخذوا ينشرون عقائدهم بـشتى الطـرق حتى إنّهم كانوا يرسلون للشيخ خطابات يوضحون فيهـا عقائـدهم بـل ويـرد بعضهم عليه في الصحف.

وهذا ما أثبته الشيخ في مقالاتـه، فهـو يقـول: «بعـض النـاس قـال لي: مـن لم يعتقـــد أنّ الله في الـــسماء فهـــو كـــافر؛ لأنّ الله يقـــول: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] الخ. فقلت له: إنّ الذي يعتقد ذلك على ظاهره هو الكافر؛ فـإنّ من اعتقد أنّ لله ظرفًا يحويه ومكانًا يستقرّ فيه فقـد شـبهه بخلقـه، ومـن شـبهه بخلقه فقد كفر، وكنت أظن أنّهم يتوارون من ذلك وأنّهم لـو يجـدون ملجـأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمحون». (٣)

السجـستاني ت: ٢٨٠ ه، ص٧٦، تحقيـق: أَبـوُ عَاصِـم الـشَّوَامِيُّ الأَثـرِي، المكتبـة الإسلامية للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، الأولى، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢م.

(١) مقالات وفتاوى الشيخ يوسف الدجوي، ج١، ص٤٩٢

(٢) المصدر السابق، ج١، ص٤٩٥

(٣) المصدر السابق، ، ج١، ص٣٠١، ٣٠٢

ويفند الشيخ رحمه الله هذه العقيدة كعادته بإثارة الأسئلة الاستنكاريّة بهدف تعجيز الخصم فيقول رحمه الله: «ولندع هذا كلّه ونسائلهم هذه الأسئلة: لم قلتم: إنّ الله في السماء أو على العرش بمقتضى قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [المُلك:١٦] وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥]، ولم تقولوا: أنّه في الأرض بمقتضى قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:٣] أو تقولوا: إنّه في جميع الأجواء والنواحي بمقتضى قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥]، ولماذا لم تقولوا: إنّه في بيوتنا وأسواقنا بمقتضى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾ [الحديد:٤]، أو تقولوا: إنّه في قبلة المصلي كما في الحديث الصحيح، أو تقولوا: إنّه تحت الأرض أو في باطنها بمقتضى قوله ﷺ: لو دليتم بحبل لهبط على الله».[1]

الحق أنّهم لو أولوا بعض هذه النصوص صار ترجيحًا بلا مرجح كما يقول الشيخ.[2]

ولم يقف الشيخ عند هذا الحد بل نقل الشبه العقليّة والنقليّة وفندها ودحضها، وهذا ما يتوجه إليه البحث الآن.

شبهة عقليّة وتفنيدها

هذه الشبهة فحواها: أنّه من لم يوجد في جهة فهو معدوم وليس موجودًا، فإذا نفيتم عن الله الجهة فهو من قبيل المعدومات والعياذ بالله.

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص٢٠٤، ٢٠٥

(٢) المصدر السابق، ج١، ص٣٠٦

يصور الشيخ هذه الشبهة بقوله: «قال بعض أئمتكم على ما به من علم وفلسفة ما معناه: إنّ القول بأنّ الله لا جهة له وأنّه ليس فوقًا ولا تحتًا الخ قول بأنّ الله غير موجود فإنّ هذه صفات المعدوم لا الموجود».(١)

ويقصد هنا ابن تيمية؛ فإنّه هو من أثار الشبهة حين قال: «نفي الجهة يستلزم القول بعدم البارئ».(٢)

ويرد الشيخ هذه الشبهة بقوله: «غاب عنه أنّ هذا قياس الغائب على الشاهد، وإلحاق المنزّه بالمادي، والخالق بالمخلوق، فإنّ المادي هو الذي يتصف بشيء من تلك الصفات، أمّا غير المادي فترتفع عنه هذه الصفات كلها، بل لكونه غير مادي مانع من قبوله لها».(٣)

والشيخ محق هنا كلّ الحق، فإنّ المتقابلات تنتفي بانتفاء قابليّة المحل، والله تعالى غير مادي فتنتفي المتقابلات التي تختص بالماديات عنه كالجهة، ويقرب الشيخ ذلك إلى الأفهام بضرب مثال على ذلك حين يقول: «ولنقرب ذلك بعض التقريب فنقول: إنّ الإنسان مثلاً لا يتصور فيه إلا أن يكون جاهلاً أو عالمًا، ولا يتصور ارتفاع الجهل والعلم عنه، ولكنّ الحجر

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص٣٢٦، ٣٢٧، وذكر هذه الشبهة أيضًا: ص٤٤٣

(٢) بيان تلبيس الجهميّة، ابن تيمية، ج١، ص٤٠٠، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الأولى، ١٤٢٦هـ.

(٣) مقالات الشيخ يوسف الدجوي، ج١، ص ٣٢٧، وانظر: ص٤٤٤

لا يتصف بكونه عالمًا ولا جاهلاً فهما منتفيان عنه بل ممتنعان عليه لعدم القابليّة». [١]

والنتيجة أنّ الله تعالى موجود ولا جهة؛ وإلا فهل كان معدومًا قبل وجود الجهة؟ فإن أقروا كفروا، وإن أنكروا بطل مذهبهم.

النزول الحقيقي

روى البخاري ومسلم بسندهما عن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ". [٢]

فذهب السلفيون إلى أنّه نزول حقيقي، والنزول الحقيقي هو الهبوط من أعلى لأسفل،

وقد ذكر النزول الحقيقي هذا عبد الغفار المسلاوي في رسالته للشيخ الدجوي فقال: «فكلّ ما وصف الله تعالى به نفسه من الوجه واليدين والاستواء على العرش، أو وصفه به رسوله ﷺ كنزوله إلى سماء الدنيا كلّ ليلة، فهو عندهم حق على حقيقته التي تليق به من غير تشبيه ولا تكييف». [٣]

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص ٣٢٧

(٢) رواه البخاري، ك الجمعة، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، ج٢، ص٥٣، ومسلم، ك صلاة المسافر، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، ج١، ص٥٢١

(٣) المصدر السابق، ج١، ص ٢٠٥

وكان الجواب من الشيخ متمثلاً في طلب معنى النزول الحقيقي فقال: «فما معنى النزول حقًا وعلى حقيقته؟ وهل هناك حقيقة للنزول غير الهبوط من أعلى إلى أسفل؟ لا تعرف العرب حقيقة للنزول غير هذا، وإن جاز استعماله في غيره على طريق المجاز... وما معنى قولكم بعد ذلك: بلا تشبيه ولا تكييف؟ وهل هو إلا قول متهافت لا معنى له بعد أن قررتم أنّها ثابتة له على سبيل الحقيقة».(١)

والحق أنّ إثبات النزول الحقيقي يلزم منه محالات أغفلها الشيخ الدجوي، كنزوله تعالى أبدًا بناء على أنّ الثلث الأخير من الليل باق في جزء من الأرض، فلا تخلو لحظة إلا وفيها جزء أخير من الليل في مكان من الأرض، فيلزم أنّه تعالى نازل أبدًا، وهو ما لا يقول السلفيون المعاصرون به.

الأثر المروي عن مجاهد والأثر المروي عن مالك في الاستواء

يقول المسلاوي في رسالته للشيخ: «فقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥] الصحيح عندهم ما نقله الإمام البخاري في صحيحه وغيره عن مجاهد من أنّ معناه: علا أي علوًا بلا تمكن على العرش لا نعقل كيفيته، كما قال مالك الإمام وقد سُئل عن كيفيّة استوائه على العرش: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».(٢)

يسأل الشيخ عن المفهوم من كلام مجاهد فيقول: «ونحن نسألك عمّا فهمته من كلام مجاهد هذا: هل فهمت العلوّ الحسي كما ينبئ منه قولك الذي

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص ٢٠٢

(٢) المصدر السابق، ج١، ص ٢٠٢

تكرره: إنّه فوق عرشه؟ وإذًا تكون أثبت له الجهة والحيز لا محالة، وإذا ثبتت له الجهة ثبتت له الجسميّة، ومتى ثبتت له الجسميّة، ثبتت له لوازمها، وإذا أردت العلوّ المعنوي وافقتنا ولم تأت بشيء جديد».[1]

وعن الأثر المرويّ عن الإمام مالك يقول الشيخ: «ثمّ نقول لك بعد ذلك: ماذا فهمت عبارة مالك في قوله: الاستواء معلوم؟ هل ظننت أنّ مالكًا يثبت الاستواء المعلوم؟ إذًا يكون مشبهًا ومجسمًا؛ لأنّ الاستواء المعلوم هو الاستقرار المستلزم للجسميّة ولوازمها، فإن كان الاستواء بغير هذا المعنى فهو غير معلوم، فيجب إذًا أن يكون مراد مالك أنّه معلوم الثبوت والورود، فإنّه نطق به القرآن، لا معلوم الحقيقة والمعنى. على أنّ بعض المحققين يطعن في ثبوت الرواية عن مالك، وهو الذي أقول به ولا أكاد أعتقد غيره، فإنّ جعله الاستواء معلومًا _ على ما يفهم منه _ اعتراف بأنّ المجهول هو الكيف فقط، وقد يستوي الملك على عرشه بكيفيات كثيرة، فجهل الكيفيّة لا تكفي في التنزيه، بل يثبت التشبيه؛ فإنّ الكيفيّة حاصلة على كلّ حال غير أنّها مجهولة، فالاستواء الحقيقي لا يعقل بدون كيفيّة وإن لم تكن معلومة لنا، ولكن لا بدّ له من كيفيّة في الواقع. هذا وقد رأيت في رواية أخرى في هذه الواقعة عن عبد الله بن وهب أنّ مالكًا سئل عن الاستواء؟ فأطرق وأخذته الرحضاء، ثمّ قال: الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه، ولا يقال له كيف، وكيف عنه مرفوع. إلى آخر ما قال».[2]

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص ٢٠٦

(٢) المصدر السابق، ج١، ص ٢٠٧، ٢٠٨

والحق أنّ الأثر المروي عن مالك لا يثبت بلفظ: والكيف مجهول. وإنّما كما ذهب الشيخ أنّ الثابت: وكيفُ عنه مرفوع. والأخرى: والكيف غير معقول.

وفي النهاية يختار الشيخ مذهب السلف مذهبًا له؛ فيقول : «على أني أختار مذهب السلف وأدين به، فأحاديث الصفات ليست على ظاهرها، وأنّ لها تأويلات تليق بجلال الله تعالى، ولا نقطع بتعيين تأويل منها، بل نكلُ ذلك إلى العليم الخبير، ولكن لا بدّ من التنزيه على كلّ حال».(١)

فمذهب السلف إذن، هو تفويض علم المعنى إلى الله تعالى.

المطلب الثاني: تقسيم التوحيد إلى ربوبيّة وألوهيّة وموقف الشيخ الدجوي

قسّم الإمام ابن تيمية التوحيد إلى توحيد ربوبيّة وتوحيد إلهيّة، وادعى أنّ البشر كلهم مقرون بتوحيد الربوبيّة، وأمّا توحيد الإلهيّة أو توحيد العبادة، فهو التوحيد الذي من أجله بُعث الرسل، وهو الذي يتمايز به المؤمن والكافر، فهو الذي من أجله بعث الله الرسل؛ يقول ابن تيمية: «وَلمَّا كَانَ عِلْمُ النُّفُوسِ بِحَاجَتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ إلَى الرَّبِّ قَبْلَ عِلْمِهِمْ بِحَاجَتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ إلَى الْإِلَهِ الْمَعْبُودِ، وَقَصْدِهِمْ لِدَفْعِ حَاجَاتِهِمْ الْعَاجِلَةِ قَبْلَ الْآجِلَةِ؛ كَانَ إقْرَارُهُمْ بِاَللَّهِ مِنْ جِهَةِ رُبُوبِيَّتِهِ أَسْبَقَ مِنْ إقْرَارِهِمْ بِهِ مِنْ جِهَةِ أُلُوهِيَّتِهِ، وَكَانَ الدُّعَاءُ لَهُ وَالِاسْتِعَانَةُ بِهِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ فِيهِمْ أَكْثَرَ مِنْ الْعِبَادَةِ لَهُ وَالْإِنَابَةِ إلَيْهِ. وَلِهَذَا إنَّمَا بَعَثَ الرُّسُلَ يَدْعُونَهُمْ إلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الَّذِي هُوَ الْمَقْصُودُ الْمُسْتَلْزِمُ لِلْإِقْرَارِ بِالرُّبُوبِيَّةِ. وَقَدْ أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص٢٠٩

لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ ﴾ (الزُّخرُف:٨٧) وَأَنَّهُمْ إِذَا مَسَّهُمْ الضُّرُّ ضَلَّ مَنْ يَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ، وَقَالَ: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ﴾ (لقمان:٣٢) فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ مُقِرُّونَ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَأَنَّهُمْ مخْلِصُونَ لَهُ الدِّينَ إِذَا مَسَّهُمْ الضُّرُّ فِي دُعَائِهِمْ وَاسْتِعَانَتِهِمْ، ثُمَّ يُعْرِضُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ فِي حَالِ حُصُولِ أَغْرَاضِهِمْ. وَكَثِيرٌ مِنْ المُتَكَلِّمِينَ إِنَّمَا يُقَرِّرُونَ الْوَحْدَانِيَّةَ مِنْ جِهَةِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَأَمَّا الرُّسُلُ فَهُمْ دَعَوْا إِلَيْهَا مِنْ جِهَةِ الْأُلُوهِيَّةِ». [1]

فيقرر أنّ التوحيد ينقسم إلى قسمين: توحيد ربوبيّة، وتوحيد ألوهيّة، وكلّ الناس مقرون بأنّ الله خالق بارئ رازق عالم قادر الخ، وهو التوحيد الذي تكلّم عنه المتكلمون، أمّا توحيد الألوهيّة فلم يعرفه كلّ البشر، بل لم يعرفه المتكلمون، وهو الذي من أجله أرسل الله الرسل.

وقد زعم متابعوه أنّ التقسيم الثلاثي للتوحيد جاء بناء على استقراء تام لنصوص القرآن الكريم والسنّة؛ يقول بكر بن عبد الله أبو زيد: «وهو استقراء تام لنصوص الشرع، وهو مطرد لدى أهل كلّ فن كما في استقراء النحاة: كلام العرب إلى اسم، وفعل، وحرف، والعرب لم تَفُهْ بهذا ولم يعتب على النحاة في ذلك عاتب، وهكذا من أنواع الاستقراء». [2]

---

(١) مجموع الفتاوى، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، ج١٤، ص١٤، ١٥، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٩٩٥م.

(٢) التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير، بكر بن عبد الله أبو زيد، ص٣٧، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الدمام، الثانية، ١٤١٠هـ.

وقد جرّهم تقسيم التوحيد إلى ألوهيّة وربوبيّة، وأنّ توحيد الألوهيّة هو الذي من أجله أرسل الله الرسل إلى زعم أنّ توحيد الألوهيّة قد انطمس في الأمّة فلم يعد قائمًا إلى أن جاء محمد بن عبد الوهاب، وفي هذا يقول: «وأنا أخبركم عن نفسي والله الذي لا إله إلا هو، لقد طلبت العلم، واعتقد من عرفني أنّ لي معرفة، وأنا ذلك الوقت، لا أعرف معنى لا إله إلا الله، ولا أعرف دين الإسلام، قبل هذا الخير الذي من الله به؛ وكذلك مشايخي، ما منهم رجل عرف ذلك. فمن زعم من علماء العارض: أنّه عرف معنى لا إله إلا الله، أو عرف معنى الإسلام قبل هذا الوقت، أو زعم من مشايخه أنّ أحدًا عرف ذلك، فقد كذب وافترى».[1]

فهو هنا يُكفر نفسه قبل معرفة توحيد العبادة، ويكفر مشايخه! لأنّهم لم يعرفوا توحيد العبادة.

هذا، وتتنوع عبارات أتباع ابن عبد الوهاب للتدليل على أنّ قسمًا كبيرًا من الأمة الإسلاميّة الذين يقولون لا إله إلا الله، لا يفهمون معناها بل هم مشركون في حقيقة الأمر؛ يقول صالح الأطرم: «إنّ كفار أهل زماننا لا يفهمون معناها (لا إله إلا الله)؛ لأنّهم يقولونها، ومع ذلك تخالفه أفعالهم

---

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية، ج١٠، ص٥١، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، السادسة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، بدون ذكر اسم المطبعة.

فيعبدون القبور، ويدعون الأولياء والصالحين، ولو عرفوا معناها حقيقة لما عبدوهم وما استغاثوا بهم». [١]

بل ذهب بعضهم وهو محمد باشميل إلى أنّ أبا جهل وأبا لهب أكثر توحيدًا وأكثر إيمانًا من كثير من المسلمين وفي ذلك يقول: «أبو جهل وأبو لهب ومن على دينهم من المشركين، كانوا يؤمنون بالله ويوحدونه في الربوبيّة خالقًا ورازقًا، محييًا ومميتًا، ضارًا ونافعًا، لا يشركون به في ذلك شيئًا؟؟ عجيب، وغريب، أن يكون أبو جهل وأبو لهب، أكثر توحيدًا لله وأخلص إيمانًا به من هؤلاء المسلمين الذين يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله». [٢]

وهكذا انتهى الحال بهؤلاء - تبعًا لهذا التقسيم - إلى تكفير قسم كبير من أبناء الإسلام بدعوى أنّهم كفروا بتوحيد الإلهيّة أو توحيد العبادة، فزعموا أنّهم اتخذوا الأموات أندادًا من دون الله، فقدسوها وعبدوها.

---

(١) اعتماد فقه دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب على الكتاب والسنة (مطبوع ضمن بحوث ندوة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الأول)، صالح بن عبد الرحمن الأطرم، ص٣٢٨، عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية، الثانية، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

(٢) كيف نفهم التوحيد، محمد بن أحمد باشميل، ص١٢، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الثانية، ١٤٠٦هـ.

ويمكن تلخيص ما ذهب إليه ابن تيمية ومن تبعه في النقاط التالية:

١- أنّ توحيد الربوبيّة أقرّ به مشركو قريش وغيرهم من الأمم فهو مركوز في فطرة الإنسان.

٢- توحيد الربوبيّة ينفك عن توحيد الألوهيّة، فقد يوجد توحيد الربوبيّة بدون توحيد الألوهيّة. ولا يوجد توحيد الألوهيّة بدون توحيد الربوبيّة.

٣- الذي يُسأل عنه العبد هو توحيد الألوهيّة، ولا يُسأل عن توحيد الربوبيّة.

٤- تقسيم التوحيد إلى ألوهيّة وربوبيّة بناء على استقراء تام لنصوص القرآن الكريم والسنّة المطهرة.

٥- الذي يتوسل ويستغيث بالأموات هو عابد لهم ومن ثمّ فإنّه مشرك شركًا أكبر يخرجه من الملّة.

موقف الشيخ الدجوي من هذا التقسيم

في البداية يقرر الشيخ أنّ تقسيم التوحيد إلى إلهيّة وربوبيّة لم يكن معروفًا قبل ابن تيمية، ولم يكن من هدي النبي ﷺ أن يدعو الناس إلى توحيدين، أو أن ينبه على هذا التقسيم، وكذلك لم يكن معروفًا عند السلف ﵃؛ يقول الشيخ الدجوي: «قولهم: "إنّ التوحيد ينقسم إلى توحيد الربوبيّة وتوحيد الألوهيّة" تقسيم غير معروف لأحد قبل ابن تيمية، وما كان رسول الله ﷺ يقول لأحد دخل في الإسلام: إنّ هناك توحيدين وإنّك لا تكون مسلمًا حتى

توحد توحيد الألوهيّة، ولا أشار إلى ذلك بكلمة واحدة، ولا سُمِع ذلك عن أحد من السلف الذين يتبجحون باتباعهم في كل شيء».[1]

ويرى الشيخ أنّ هذا التقسيم باطل، مستندًا في هذا إلى أدلّة من القرآن الكريم ومن السنّة المطهرة.

أمّا الأدلّة القرآنيّة فهي كالتالي:

١ - أثبت القرآن الكريم أنّ المشركين عددوا الأرباب، وما داموا عددوا الأرباب فتسقط دعوى ابن تيمية ومن تبعه بأنّ المشركين مؤمنون بتوحيد الربوبيّة؛ يقول الشيخ: «أمّا القرآن فقد قال: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ﴾ [آل عمران: ٨٠]، فصرح بتعدد الأرباب عندهم، وعلى الرغم من تصريح القرآن بأنّهم جعلوا الملائكة أربابًا يقول ابن تيمية ومحمد بن عبدالوهاب: إنّهم موحدون توحيد الربوبيّة وليس عندهم إلا رب واحد وإنّما أشركوا في توحيد الألوهيّة!! ويقول يوسف عليه السلام لصاحبي السجن وهو يدعوهما إلى التوحيد: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف: ٣٩]».[2]

وكذلك صرّح القرآن الكريم بأنّ طائفة من المشركين كانوا يكفرون بالربوبيّة؛ يقول الشيخ: «ويقول الله تعالى أيضًا: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى﴾ [الرعد: ٣٠]، وأمّا هم فلم يجعلوه ربًا. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ

(١) مقالات وفتاوى الشيخ يوسف الدجوي، ج١، ص٢٩٤

(٢) المصدر السابق، ج١، ص٢٥٠

رَبِّي ﴾ [الكهف:٣٨] خطابًا لمن أنكر ربوبيّته تعالى، وانظر إلى قولهم يوم القيامة : ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨]، أي في جعلكم أربابًا ـ كما هو ظاهر ـ وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ [الفرقان: ٦٠]، فهل ترى صاحب هذا الكلام موحدًا أو معترفًا؟!. ثمّ انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ ﴾ [الرعد:١٣]، إلى غير ذلك وهو كثير لا نطيل بذكره، فإذًا ليس عند هؤلاء الكفار توحيد الربوبيّة - كما قال ابن تيمية - ، وما كان يوسف عليه السلام يدعوهم إلا إلى توحيد الربوبيّة، لأنّه ليس هناك شيء يسمى توحيد الربوبيّة وشيء آخر يسمى توحيد الألوهيّة عند يوسف عليه السلام، فهل هم أعرف بالتوحيد منه ويجعلونه مخطئًا في التعبير بالأرباب دون الآلهة؟!». [1]

٢- ولو كان كلام ابن تيميّة ومن تبعه صحيحًا فمعنى هذا أنّ أخذ الميثاق على بني آدم بالربوبيّة غير كاف في التوحيد؛ يقول الشيخ: «ويقول الله في أخذ الميثاق : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف:١٧٢] ، فلو كان الإقرار بالربوبيّة غير كاف وكان متحققًا عند المشركين ولكنّه لا ينفعهم - كما يقول ابن تيمية - ، ما صح أن يؤخذ عليهم الميثاق بهذا، ولا صح أن يقولوا يوم القيامة : ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٢]، وكان الواجب أن يغير الله عبارة الميثاق إلى ما يوجب اعترافهم بتوحيد الألوهيّة؛ حيث إنّ توحيد الربوبيّة غير كاف - كما يقول هؤلاء - ، إلى آخر ما يمكننا أن نتوسع فيه،

(١) المصدر السابق، ج١، ص٢٥٠، ٢٥١

وهو لا يخفى عليك، وعلى كلّ حال فقد اكتفى منهم بتوحيد الربوبيّة، ولو لم يكونوا متلازمين لطلب إقرارهم بتوحيد الألوهيّة أيضًا».[١]

٣- مجادلة فرعون لموسى عليه السلام كانت في الربوبيّة، ولو كان الناس جميعًا مقرين بالربوبيّة لكان هذا الجدال من قبيل العبث، والعبث منزّة عن الأنبياء؛ وهذه المحاورة وردت في قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾[الشعراء:٢٣ - ٢٩]

بل إنّ ادعاء فرعون نفسه كان ادعاء الربوبيّة؛ قال تعالى: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:٢٤]

يقول الشيخ الدجوي عن هذه المحاورة: «وما كانت محاورة فرعون لموسى عليه الصلاة والسلام إلا في الربوبيّة وقد قال: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:٢٤] ثمّ قال: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء:٢٩] ولا داعي للتطويل في هذا».[٢]

أمّا السنة النبويّة المطهرة فقد ثبت فيها أنّ الملكين يسألان المتوفى عن الربوبيّة، ولو كان المشرك والمؤمن يؤمنان بالربوبيّة، وأنّها غير كافية في

(١) المصدر السابق، ج١، ص٢٥١، ٢٥٢

(٢) المصدر السابق، ج١، ص٢٥٢

إثبات الإيمان كان السؤال عن الربوبيّة لا يفيد شيئًا، بل من قبيل العبث، فبطل أنّ هناك تغايرًا بين استعمال الرب والإله في السنّة المطهرة، وأنّهما بمعنى واحد؛ يقول الشيخ: «وأمّا السنّة فسؤال الملكين للميت عن ربه لا عن إلهه، لأنّهم لا يفرقون بين الرب والإله، فإنّهم ليسوا بتيميين ولا متخبطين، وكان الواجب على مذهب هؤلاء أن يقولوا للميت: من إلهك لا من ربك!! أو يسألوه عن هذا وذاك».[1]

وخلاصة القول، أنّ هذا باطل؛ لأنّه منقوض بأدلّة قرآنية، ومن السنّة النبويّة، ولا يوجد استقراء تام للقرآن الكريم والسنّة المطهرة على هذا التقسيم كما زعم أصحاب هذا التقسيم.

جواب الشيخ على ما استدلّ به ابن تيمية وأتباعه

سبق أنّ ابن تيمية ومن تبعه يقولون بأنّ المشركين مقرون بتوحيد الربوبيّة، فهم يؤمنون بأنّ الله هو الخالق والرازق، وأنّه الضار والنافع، وأنّه المحيي والمميت، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت:٦١]، مع إقرارهم هذا لم يكونوا مؤمنين؛ لأنّهم عبدوا مع الله غيره.

يجيب الشيخ عن استدلالهم هذا بقوله: «وأمّا قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ [لقمان:٢٥]، فهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم إجابة لحكم الوقت مضطرين لذلك بالحجج القاطعات والآيات

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص٢٥٢

البينات، ولعلّهم نطقوا بما لا يكاد يستقر في قلوبهم أو يصل إلى نفوسهم، بدليل أنّهم يقرنون ذلك القول بما يدل على كذبهم، وأنّهم ينسبون الضر والنفع إلى غيره، وبدليل أنّهم يجهلون الله تمام الجهل ويقدمون غيره عليه حتى في صغائر الأمور، وإن شئت فانظر إلى قولهم لهود عليه الصلاة والسلام: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود:٥٤] فكيف يقول ابن تيمية: إنّهم معتقدون أنّ الأصنام لا تضر ولا تنفع إلى آخر ما يقول؟!. ثمّ انظر بعد ذلك في زرعهم وأنعامهم: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ [الأنعام:١٣٦]، فقدموا شركاءهم على الله تعالى في أصغر الأمور وأحقرها. وقال تعالى في بيان اعتقادهم في الأصنام: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ [الأنعام:٩٤]، فذكر أنّهم يعتقدون أنّهم شركاء فيهم، ومن ذلك قول أبي سفيان يوم أحد: (اعل هبل)، فأجابه ﷺ بقوله: "الله أعلى وأجلّ"[1]، فانظر إلى هذا ثمّ قل لي ماذا ترى في ذلك من التوحيد الذي ينسبه إليهم ابن تيمية ويقول: إنّهم فيه مثل المسلمين سواء بسواء وإنّما افترقوا بتوحيد الألوهيّة ؟!».[2]

(١) رواه البخاري في صحيحه، ك الجهاد والسير، بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّنَازُعِ وَالِاخْتِلاَفِ فِي الحَرْبِ، وَعُقُوبَةِ مَنْ عَصَى إِمَامَهُ، ج٤، ص٦٥، دار طوق النجاة، الأولى، ١٤٢٢هـ.
(٢) مقالات وفتاوى الشيخ يوسف الدجوي، ج١، ص٢٥٢، ٢٥٣.

التوسل والاستغاثة[1]

يترتب على تقسيم التوحيد إلى ربوبيّة وألوهيّة عدّة نواقض في زعم مقسميه، أهمها: التوسل والاستغاثة، فكلّ من دعا أو توسّل بغير الله فهو كافر أيضًا.

بينما يرى الشيخ أنّ موضوع التكفير هذا خطير، وأنّ ما زعموه نواقض لتوحيد الألوهيّة أو العبادة يخرج طائفة كبيرة من المسلمين من الإسلام ويلحقهم بالكفار.

وقد أولى الشيخ الدجوي مسألة التوسل والاستغاثة اهتمامًا خاصًا، ويرجع هذا إلى هجمة التكفير التي قادها الوهابيّة على من توسل أو أجاز التوسل، وما يقصده الشيخ هو إيقاف هذه الهجمة، وليس معنى هذا - كما فهم البعض - أنّ الشيخ يوجب التوسل والاستغاثة، كلا، إنّما جوّز فقط، وقد اتبع الشيخ في نقاشه معهم المنهج التالي:

١- ما هو المقصود بالتوسل والاستغاثة؟ وما هو حكمهما؟

٢- هل للتوسل مستند شرعي؟

٣- اللوازم الفاسدة على إنكار التوسل.

---

(١) كتب في موضوع التوسل والاستغاثة كثيرون منهم مؤيد ومنهم معارض، ومن أهمّ المؤلفات التي تناولت هذا الموضوع: الجوهر المنظم لابن حجر الهيتمي، إحياء المقبور لعبد الله بن الصديق الغماري، الإفهام والإفحام لمحمد زكي إبراهيم، محق التقول للكوثري، قاعدة جليلة في التوسل لابن تيمية، التوسل لمحمد ناصر الألباني وغيرها كثير.

٤- الرد على شبه الوهابيّة.

٥- ألزم الشيخ هؤلاء بمذاهب شيوخهم.

أولاً: تعريف التوسل والاستغاثة(١)

يمكن تعريف الاستغاثة عند الشيخ بطلب المعونة من النبي ﷺ أو الأنبياء أو من يرجى صلاحه من المؤمنين، والتوسل هو سؤال الله تعالى بالنبي ﷺ أو الأنبياء أو من يرجى صلاحه من المؤمنين.

ويجب أن يعتقد المستغيث والمتوسل «أنّ المعطي والمانع هو الله تعالى، ولكن يقول: إنّ الولي أو النبي أقرب إلى الله مني، وله عند الله جاه وحرمة وذلك حق لا نزاع فيه؛ ولذلك يشفع النبي ﷺ للخلائق يوم القيامة، وكذلك الأنبياء والصالحون».(٢)

ويجب أن يعتقد أيضًا «أنّ الله هو الفاعل، ولسنا نطلب من غيره فعلاً ولا عملاً».(٣)

فالمتوسل يعتقد أنّ الله هو المعطي والمانع، وأنّه هو الفاعل لا غيره، وهو سائل الله تعالى حاجته بمنزلة النبي أو الولي أو العالم، والتوسل هنا راجع إلى الأعمال الصالحة؛ ومن ثمّ يقول الشيخ: «فالمتوسل بالصالحين إنّما

---

(١) يلاحظ أنّ الشيخ رحمه الله عندما يتحدث عن التوسل والاستغاثة يجمعهما؛ وذلك لأنّ المخالف يزعم أنّ المستغيث مشرك؛ لأنّه دعا غير الله. والمتوسل مشرك؛ لأنّه جعل لله واسطة. والذي دفع الشيخ إلى هذا هو الدفاع عن تكفير المسلمين.

(٢) مقالات وفتاوى الشيخ يوسف الدجوي، ج١، ص٤٨٥

(٣) المصدر السابق، ج١، ص١٣٩، ١٤٠

يتوسل بهم من حيث إنّهـم صـالحون فيرجـع الأمـر إلى الأعـمال الـصالحة المتفق على جواز التوسل بها».[١]

أمّا إذا طلب من غير الله طلبًا – سواء كان المطلوب منه حيًا أو ميتًا – معتقـدًا فيه الألوهيّة، أو سأل بـالنبي أو الـصالح معتقـدًا ألـوهيتهما فقـد أشرك، يقـول الشيخ الدجوي: «فالشرك هو أن تطلب من غير الله على أنّه إلـه مـع الله يعطـي ويمنع بغير إذنه».[٢]

ويؤكد الشيخ هذا بقوله: «ولا يكفر المستغيث إلا إذا اعتقد الخلق والإيجـاد لغير الله».[٣]

ومن هنا ينتقـل الـشيخ إلى حكـم التوسـل والاسـتغاثة، فيرى أنّ ذلـك جـائز، ومن ثمّ يقول: «إنّ التوسل جائز وواقع بأوسع معنى الكلمة، ولا يجافيه عقل ولا نقل، وليس ذلك إلا من قبيل الأسباب والمسببات».[٤]

وإذا كان التوسل والاستغاثة من قبيل الجـائز، فلـماذا يجعلهـما الوهابيّـة مـن قبيل الكفر؟

يرى الشيخ أنّ منشأ الغلط عند السلفيين هو قياسهم المتوسل على المشرك؛ يقول الشيخ: «والعجب أنّهم يقيسون المتوسل على عابد الوثن، ويـصرحون أنّ قبور الأنبياء والأولياء والصالحين أصـنام وطواغيـت يعبـدها المتوسـلون ويشركونها مع الله في العبادة».[٥]

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص١٥٩

(٢) المصدر السابق، ج١، ص٤٨٣

(٣) المصدر السابق، ج١، ص١٦٧

(٤) المصدر السابق، ج١، ص٤٣٨

(٥) المصدر السابق، ج١، ص٤٨٨

والحق أنّ هؤلاء لم يدركوا معنى العبادة، فقد عرّف العلماء العبادة بأنّها: «مَا تُعُبِّدَ بِهِ بِشَرْطِ النِّيَّةِ وَمَعْرِفَةِ المَعْبُودِ».[1]

إذن لا بدّ في العبادة من شرطين: النيّة في العابد، والثاني معرفة المعبود، وإذا كان كلّ طلب عبادة كما يدعي السلفيون المعاصرون فيلزم منه كفر من طلب معونة من وزير أو أمير، وهم لا يقولون بهذا، ولذلك يقول الشيخ الدجوي: «الدّعاء مشترك[2]. فإذا قالوا: إنّ كلّ دعاءٍ عبادة، ردّ عليهم قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور:٦٣]، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾ [نوح:٥-٦]، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٥﴾ [يونس:٢٥]، ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص:٢٥] إلى غير ذلك، وردّ عليهم أنّهم يدعون الأمير والوزير، فهذا دعاء لغير الله، فيلزمهم على هذا الفرض أن يكون ذلك شركًا، وأن يكون الدعاء في تلك الآيات بمعنى العبادة، وهو ما لا يقوله أحد. وإن قالوا: إنّ الطّلب من غير الله كفر، وهذا هو العبادة، لزمهم كفر العالم كلّه، ولا معنى هنا للفرق بين الحيّ والميّت».[3]

إذن، لكي يكون الدعاء عبادة لا بدّ فيه من النيّة ومعرفة المعبود، وإلا يلزم تكفير كلّ من دعا غير الله تعالى.

---

(١) حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع، ج١، ص١٣٩، دار الكتب العلميّة.

(٢) المشترك هو «اللَّفْظُ الْوَاحِدُ الدَّالُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ مخُتَلِفَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ دَلَالَةً عَلَى السَّوَاءِ عِنْدَ أَهْلِ تِلْكَ اللُّغَةِ». البحر المحيط في أصول الفقه، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، ج٢، ص٣٧٧، دار الكتبي، الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

(٣) مقالات وفتاوى الشيخ يوسف الدجوي، ج١، ص٢٦٩، ٢٧٠

ثانيًا: أدلّة الشيخ على جواز التوسل والاستغاثة

يسوق الشيخ أدلّة نقليّة وعقليّة على جواز التوسل والاستغاثة؛ أمّا الدليل العقلي فملخصه، أنّه لو كان طلب المعونة من غير الله شركًا، كان طلب المعونة من البشر شركًا؛ يقول الشيخ: «هؤلاء إن كانوا يمنعون التوسل والاستغاثة ويجعلونهما شركًا من حيث إنّهما توسل واستغاثة، فاستغاثة المظلوم بمن يرفع ظلمه إذا شرك، واستغاثة الرجل بمن يعينه في بعض شؤونه شرك، واستغاثة الملك بجيشه في الحروب شرك، واستغاثة الجيش بالملك فيما يصلح أمره شرك، بل نقول يلزمهم على هذا الفرض إنّ طلب المعونة من أرباب الحرف والصنائع التي لا غنى للناس عنها شرك، وطلب المريض للطبيب شرك، بل يلزم بناء على تلك الكليات التي تقتضيها الحيثيّة إنّ استغاثة الرجل الإسرائيلي بسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام وإجابته إياه كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ﴾ [القصص:١٥]، شرك، إلى غير ذلك مما لا يقول به عاقل فضلاً عن فاضل. هذا كله إن كانوا يقولون إنّها شرك من حيث إنّها استغاثة بغير الله تعالى كما فرضنا».[1]

وأمّا الأدلّة النقليّة فنسوق جملة منها:

<u>الدليل الأوّل</u>: حديث الأعمى، يقول الشيخ: «ولنسق لك بعد ذلك كله حديثًا صحيحًا هو نص في الموضوع إلا عند من سلب العقل أو حرم نعمة الإنصاف، أخرج النسائي في سننه، والترمذي في صحيحه، وابن ماجة، وغيرهم " أنّ أعمى أتى النّبيّ ﷺ؛ فقال: يا رسول الله؛ إنّي أُصبت في بصري؛ فادعُ الله لي؛ فقال له النّبيّ ﷺ: «توضأ، وصلّ ركعتين، ثمّ قل: اللهمّ

(١) المصدر السابق، ج١، ص١٦١

إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيّك محمّد، يا محمّد؛ إنّي أستشفع بك في ردّ بصري، اللهمّ شفّع النّبيّ فيّ»، وقال: «فإن كان لك حاجة فمثل ذلك»؛ فردّ الله بصره[1]».[2]

---

(١) ورد هذا اللفظ في رواية ابن أبي خيثمة في تاريخه وإسنادها صحيح؛ قال ابن تيمية: "وقد روى أبو بكر بن أبي خيثمة في تاريخه حديث حماد ابن سلمة فقال: حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا حماد بن سلمة، نا أبو جعفر الخطمي، عن عمارة بن خزيمة، عن عثمان بن حنيف، أن رجلاً أعمى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني أصبت في بصري، فادع الله لي. قال: "اذهب فتوضأ، وصل ركعتين ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيي محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أستشفع بك على ربي في رد بصري، اللهم فشفعني في نفسي، وشفع نبيي في رد بصري، وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك". فرد الله عليه بصره. قال ابن أبي خيثمة: وأبو جعفر هذا - الذي حدث عنه حماد بن سلمة - اسمه عمير بن يزيد، وهو أبو جعفر، الذي يروي عنه شعبة". قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، ابن تيمية، ص٢١٣، تحقيق: ربيع بن هادي عمير المدخلي، مكتبة الفرقان – عجمان، الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١هـ.، وورد بألفاظ أخرى عند الحاكم في المستدرك ج١، ص٤٥٨، وقال عقبه: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ " انظر: المستدرك للحاكم، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠م، والترمذي في سننه، ج٥، ص٤٦١، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ١٩٩٨ م، وأحمد في مسنده، ج٢٨، ص٤٧٨، ١ - تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

(٢) مقالات وفتاوى الشيخ يوسف الدجوي، ج١، ص١٥٤، ١٥٥

ففي الحديث نداء للنبي ﷺ بقوله: يا محمد، وفيه أيضًا عدم تخصيص الطلب من النبي ﷺ في حياته أو مماته. ويعلق الشيخ على هذا الحديث بقوله: «وأمّا التوسل به بعد وفاته فيمكننا أن نستدل عليه بهذا الحديث، فإنّ قوله ﷺ: "فإن كان لك حاجة فمثل ذلك" صريح في جوازه بلا قيد، ويدلّ له أيضًا ما رواه الطبراني[1] والبيهقي[2] والترمذي[3] بسند صحيح[4] عن عثمان بن

---

(١) المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، ج٩، ص٣٠، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الثانية، والمعجم الصغير، أبو القاسم الطبراني، ج١، ص٣٠٦، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، المكتب الإسلامي، دار عمار – بيروت، عمان، الأولى، ١٤٠٥ – ١٩٨٥م.

(٢) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، ج٦، ص١٦٨،١٦٧، دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى - ١٤٠٥ هـ.

(٣) سنن الترمذي، ج٥، ص٤٦١

(٤) قال الطبراني: «لَمْ يَرْوِهِ عَنْ رَوْحِ بْنِ الْقَاسِمِ إِلَّا شَبِيبُ بْنُ سَعِيدٍ أَبُو سَعِيدٍ الْمَكِّيُّ وَهُوَ ثِقَةٌ وَهُوَ الَّذِي يحَدِّثُ عَنِ أَحْمَدَ بْنِ شَبِيبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ يُونُسَ بْنِ يَزِيدَ الْأُبُلِّيِّ، وَقَدْ رَوَى هَذَا الحَدِيثَ شُعْبَةُ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الخَطْمِيِّ وَاسْمُهُ عُمَيْرُ بْنُ يَزِيدَ، وَهُوَ ثِقَةٌ تَفَرَّدَ بِهِ عُثْمَانُ بْنُ عُمَرَ بْنِ فَارِسٍ عَنْ شُعْبَةَ، وَالحَدِيثُ صَحِيحٌ». المعجم الصغير، أبو القاسم الطبراني، ج١، ص٣٠٦، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، المكتب الإسلامي، دار عمار - بيروت، عمان، الأولى، ١٤٠٥ – ١٩٨٥م. وقال الشيخ عبد الله بن الصديق الغماري بعد ذكره كلام العلماء في الحديث: «وبالجملة فالحديث صحيح

حنيف ﷺ أنّ رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان زمن خلافته في حاجة له فكان له يلتفت إليه، فرجا عثمان بن حنيف أن يكلمه في شأنه، فعلّمه الدعاء المذكور فتوضأ وصلى ثمّ دعا به كما علمه، ثمّ جاء إلى باب عثمان فأخذه الخادم وأدخله عليه فأجلسه بجانبه على الطنفسة ثمّ قضى حاجته، وقال له: وإذا عرضت لك حاجة فأتنا، فلمّا قابل الرجل عثمان بن حنيف قال له: جزاك الله خيرًا، وما كان ينظر في حاجتي حتى كلمته فيها، فقال له: والله ما كلمته ولكني كنت مع رسول الله ﷺ فدخل علمه أعمى وذكر الحديث».[1]

ومعنى هذا أنّ الرجل نادى النبي ﷺ بعد وفاته وطلب قضاء حاجته، وقد فهم الصحابي عثمان بن حنيف ﷺ من الحديث أنّه لا يتقيد بحياة النبي ﷺ دون وفاته، بل يشمل حياته ووفاته، ولذلك علّم الرجل الحديث، وأمره بالتوسل بالنبي ﷺ ومناداته بعد وفاته ﷺ.

بإجماع الحفاظ، لا مطعن فيه ولا مَغْمز». الرد المحكم المتين على كتاب القول المبين، عبد الله بن الصديق الغماري، ص١٥٠، مطبعة العهد الجديد، الثانية، ١٩٥٥م.

(١) مقالات وفتاوى الشيخ يوسف الدجوي، ج١، ص٤٨٦.

وقد عقب عبد الله القصيمي[١] على كلام الشيخ السالف ذكره قائلاً: «هذا فهم صحابي، والحجة في روايته لا في فهمه، فإن قلت: كيف يستقيم لكم ذلك وأنتم ترون دعوة الأموات شركًا، وهل ترون سهلاً أشرك؟ فيقال: أولاً: أنا في مقام إبطال التوسل ونفي أدلة الكاتب، أعم من كون المبطل شركًا أو كفرًا أو بدعة محدثة، هي على كلّ حال من شر الأمور. ويثال ثانيًا: يمكن أنّه رأيٌ رآه ورجع عنه حالاً، ولا منع أن يرى المسلم الرأي المؤدي إلى الكفر ثمّ يعود عنه».[٢]

وقد أخطأ القصيمي هنا عدّة أخطاء، أولاً: خالف القصيمي مذهبه الذي يقدم فهم الصحابي على كلّ فهم؛ يقول الألباني مؤنبًا أحدهم: «يا أخي رجعت إلى فهمك سامحك الله .. سامحك الله وهداك الله، رجعت إلى فهمك تؤثره على فهم الصحابي».[٣]

---

(١) ولد في القصيم عام ١٩٠٧م، وقد بدأ حياته وهابيًا، ثمّ تحوّل إلى الإلحاد، وفي الفترتين من عمره له مؤلفات، أمّا مؤلفاته الوهابيّة فهي: البروق النجدية في اكتساح الظلمات الدجوية، شيوخ الأزهر والزيادة في الإسلام، الفصل الحاسم بين الوهّابيين ومخالفيهم. وأمّا مؤلفاته في الفترة الثانية الإلحاد فمنها: هذه هي الأغلال، الكون يحاكم الإله. توفي في ٩ يناير ١٩٩٦م ودفن في القاهرة.

(٢) البروق النجدية، عبد الله القصيمي، ص٥٦، ٥٧.

(٣) جامع تراث العلامة الألباني في الفقه، د. شادي بن محمد بن سالم آل نعمان، ج١٧، ص١٣٤، مركز النعمان للبحوث والدراسات الإسلامية وتحقيق التراث والترجمة، صنعاء – اليمن، الأولى، ٢٠١٥ م.

وقال آخر: «وَأَمَّا قَوْلُ بَعْضِهِم أَنَّ هَذَا كَانَ بِاعْتِبَارِ مَا فَهِمَ الصَّحَابِيُّ! فَمَرْدُوْدٌ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ يَعْلَمُوْنَ عَنِ اللهِ تَعَالَى أَكْثَرَ مِمَّا نَعْلَمُ بِلَا رَيْبٍ».[1]

ثانيًا: يلزمه تكفير الصحابي الذي لم يعرف ما هو كفر وما ليس بكفر، وهو ما لم يستطع الفرار منه، وقد حاول التخفيف من هذا فقال بأنّ الصحابي فعل أشر الأمور.

ثالثًا: أخطأ القصيمي في اسم الصحابي فقال: هو سهل بن حنيف، وإنّما هو عثمان بن حنيف، والرواية في إسنادها عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، عَنْ عَمِّهِ عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ، وأبو أمامة بن سهل اسمه أسعد[2]، وأبوه ليس في الإسناد، وإنّما عمه عثمان وهذا كله من وهم القصيمي.

رابعًا: ذكر القصيمي أنّ الصحابي المذكور في القصة رجع عن رأيه، ولم يقدم أيّ دليل على ذلك، ولو رجع الصحابي لنقل إلينا خاصة أنّه لا توجد موانع.

---

(١) التوضيح الرشيد في شرح التوحيد المذيل بالتفنيد لشبهات العنيد، أبو عبد الله خلدون بن محمود بن نغوي الحقوي، ص٥٤٦، بدون ذكر اسم المطبعة.

(٢) انظر ترجمته في: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، ج٤، ص ١٦٠٢، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م.

<u>الدليل الثاني</u>: توسل النبيﷺ بالأنبياء السابقين؛ يقول الشيخ: «هذا وقد توسل ﷺ بالأنبياء بعد موتهم كما في الحديث الصحيح[1]، فعن أنس بن

---

(١) رواه الطبراني في الكبير، ج٢٤، ص ٣٥١، والأوسط، ج١، ص ٦٧، قال الهيثمي: «رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ وَالْأَوْسَطِ، وَفِيهِ رَوْحُ بْنُ صَلَاحٍ، وَثَّقَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ، وَفِيهِ ضَعْفٌ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ رِجَالُ الصَّحِيحِ». مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، ج٩، ص ٢٥٧، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م، قال الشيخ عبد الله بن الصديق: «روح بن صلاح هو ابن سيابة بن عمرو الحارثي يكنى أبا الحرث ذكره ابن يونس في تاريخ الغرباء، وقال هو من الموصل قدم مصر وحدث بها رويت عنه مناكير، وذكره بن عدي في الكامل وروى من طريقه حديثين وقال: له أحاديث كثيرة في بعضها نكرة، وقال الدارقطني: ضعيف في الحديث، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال الحاكم ثقة مأمون، توفي سنة ثلاث وثلاثين ومائتين، فالحديث صحيح على رأي ابن حبان والحاكم لأنّه على شرطهما، وأمّا على رأي الدارقطني وابن عدي فهو ضعيف لكن ضعفه قريب محتمل، وليس بضعف شديد؛ لأنهما لم يضعفا روحًا بما يقتضي ترك روايته، بل عبارتهما في تضعيفه تعتبر من العبارات الخفيفة في الجرح، يؤيد ذلك قول الحافظ الهيثمي: وفيه ضعف، فإنّ هذه العبارة تفيد قلّة الضعف كما يعلم من كتب الحديث والرجال، والحاصل أنّ الحديث على القول بضعفه أحسن وأقوى من كثير من الأحاديث الضعيفة التي احتج بها الأئمة بالأحكام». الرد المحكم المتين على كتاب القول المبين، عبد الله بن الصديق الغماري، ص١٩٣، ١٩٤، وقال الشيخ محمود سعيد ممدوح: «وهو حديث حسن». انظر: رفع المنارة لتخريج أحاديث التوسل والزيارة، الشيخ محمود سعيد ممدوح، ص١٤٨، المكتبة الأزهريّة للتراث، ٢٠٠٦م.

مالك ﷺ قال: لما ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما، وكانت ربت النبي ﷺ دخل عليها رسول الله ﷺ فجلس عند رأسها ثمّ قال: رحمك الله يا أمي بعد أمي وذكر ثناءه عليها، ثمّ كفنها ببردته وأمر بحفر قبرها، قال: فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله ﷺ بيده، وأخرج ترابه بيده فلما فرغ دخل رسول الله ﷺ فاضطجع فيه ثمّ قال: الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ووسع لها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فإنّك أرحم الراحمين».[1]

وقد ذهب عبد الله القصيمي إلى أنّ دلالة هذا الحديث غير واضحة، فاحتمل أن يكون «صفة من صفاته تعالى وهو نصرته الأنبياء وإرضاؤهم وإعلاؤهم على أعدائهم، أو حقهم هو الكتب المنزلة، والسؤال بهذه الأمور موضع اتفاق».[2]

ثمّ يعود فيقول: «ولا يؤخذ منه غير سؤال الخالق بالمخلوق، ويبقى دعوة المخلوق وسائر أنواع التوسل لا دليل عليها من بصير ولا أعمى».[3]

فمعنى هذا أنّ سؤال الخالق بالمخلوق لا حرج فيه، وأنّ التوسل بهذا المعنى جائز، ولكنّ العجيب أنّ بعد هذا النص يقول القصيمي: «ثمّ نقول بعد هذا: إنّ الفقهاء صرحوا بحرمة سؤال الله بحق أحد من خلقه، قال الشيخ

---

(١) مقالات وفتاوى الشيخ يوسف الدجوي، ج١، ص١٥٥

(٢) البروق النجدية، عبد الله القصيمي، ص٦٣

(٣) المصدر السابق، ص٦٣

أبو الحسن القدوري: الشيخ[1] لا يسأل الله بحق أحد من خلقه فإنّ الله هو صاحب الحق على عباده».[2]

وهذا تناقض من القصيمي، فإمّا أن يكون سؤال الخالق بالمخلوق جائزًا أو غير جائز، على أنّ عبارة القدوري لا تحتمل الحرمة، خاصة أنّ ابن تيمية ذكر أنّ القدوري ذكره في باب الكراهة حيث قال: «قَالَ أَبُو الحُسَيْنِ القدوري فِي كِتَابِهِ الْكَبِيرِ فِي الْفِقْهِ المُسَمَّى بِشَرْحِ الْكَرْخِي فِي بَابِ الْكَرَاهَةِ»[3].

ولا يخفى أنّ الكراهة غير التحريم، ولذلك فإنّ فقهاء الأحناف اختلفوا في هذه المسألة بين الكراهة والجواز، وليس بين الكراهة والحرمة؛ قال ابن عابدين: «(قَوْلُهُ (الحصفكي) وَكُرِهَ قَوْلُهُ بِحَقِّ رُسُلِك إلَخْ) هَذَا لَمْ يُخَالِفْ فِيهِ أَبُو يُوسُفَ بِخِلَافِ مَسْأَلَةِ الْمَتْنِ السَّابِقَةِ كَمَا أَفَادَهُ الْأَتْقَانِيُّ. وَفِي التَّتَارْخَانِيَّة وَجَاءَ فِي الْآثَارِ مَا دَلَّ عَلَى الْجَوَازِ (قَوْلُهُ لِأَنَّهُ لَا حَقَّ لِلْخَلْقِ عَلَى الخَالِقِ) قَدْ يُقَالُ إنَّهُ لَا حَقَّ لهُمْ وُجُوبًا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، لَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ

---

(١) هكذا في المطبوع، والصحيح أنّها زائدة.

(٢) البروق النجدية، عبد الله القصيمي، ص٦٣

(٣) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ج١، ص٢٠٣

وَتَعَالَى جَعَلَ لَهُمْ حَقًّا مِنْ فَضْلِهِ أَوْ يُرَادُ بِالْحَقِّ الْحُرْمَةُ وَالْعَظَمَةُ، فَيَكُونُ مِنْ بَابِ الْوَسِيلَةِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥]»[١]

فاستشهاد القصيمي بالقدوري من الأحناف لا ينتج له ما يريد، والملاحظ أنّ الفقهاء عندما يتحدثون في هذه المسألة يجعلونها من باب الفقهيات، أي ما يعتريه فعل العبد من حيث الوجوب والحرمة والإباحة والكراهة والاستحباب، وليس من باب العقائد الذي يدخل العبد إمّا في الإيمان والكفر، فالاستشهاد بالفقهاء خطأ في هذا الباب.

الدليل الثالث: توسل عمر بالعباس رضي الله عنه[٢]؛ واستسقاء أحدهم بالنبي ﷺ في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول الشيخ الدجوي: «أمّا توسل عمر بالعباس حين استسقى به دون النبي ﷺ فلكون ذلك هو سنة الاستسقاء ولكون العباس من ذوي الحاجات للمطر، أو لكون عمر أراد أن يبين للناس أنه يجوز التوسل بغيره ﷺ لفضله أو لقرابته منه عليه الصلاة والسلام، أو لخوفه على ضعفاء المسلمين وعوامهم إذا تأخر المطر بعد التوسل، أو ليدلهم على أنّ

---

(١) رد المحتار على الدر المختار، ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي (المتوفى: ١٢٥٢هـ)، ج٦، ص٣٩٧، دار الفكر-بيروت، الثانية، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

(٢) رواه البخاري بسنده عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، كَانَ إِذَا قَحَطُوا اسْتَسْقَى بِالعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا»، قَالَ: فَيُسْقَوْنَ. صحيح البخاري، ك الجمعة، بَابُ سُؤَالِ النَّاسِ الإِمَامَ الِاسْتِسْقَاءَ إِذَا قَحَطُوا، ج٢، ص٢٧

التوسل بالمفضول جائز مع وجود الفاضل وإلا فعليّ أفضل من العباس وكذا عمر، على أنّ البيهقي في دلائل النبوّة أخرج ما يأتي، وكذا أخرجه ابن أبي شيبة بسند صحيح[1] عن مالك الدار خازن عمر ﷺ قال: " قَالَ: أَصَابَ النَّاسَ قَحْطٌ فِي زَمَنِ عُمَرَ، فَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتَسْقِ لِأُمَّتِكَ فَإِنَّهُمْ قَدْ هَلَكُوا، فَأَتَى الرَّجُلَ فِي الْمَنَامِ فَقِيلَ لَهُ: " ائْتِ عُمَرَ فَأَقْرِئْهُ السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُ أَنَّكُمْ مُسْتَقِيمُونَ وَقُلْ لَهُ: عَلَيْكَ الْكَيْسُ، عَلَيْكَ الْكَيْسُ "، فَأَتَى عُمَرَ فَأَخْبَرَهُ فَبَكَى عُمَرُ ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ لَا آلُو إِلَّا مَا عَجَزْتُ عَنْهُ".

ومحل الاستشهاد في هذا الأثر طلبه الاستسقاء من النبي ﷺ بعد موته وإقرار عمر إياه على ذلك. هذه وأحب أن تتذكر ما قلناه من أنّ المسؤول هو الله

(١) المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ)، ك الفضائل، باب مَا ذُكِرَ فِي فَضْلِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ج٦، ص ٣٥٦، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد – الرياض، الأولى، ١٤٠٩هـ. قال الشيخ عبد الله الغماري: «إسناد هذا الأثر صحيح، ورأيت الحافظ عزاه في الفتح إلى ابن أبي شيبة من طريق أبي صالح عن مالك الدار باللفظ المذكور، وقال: سنده صحيح. والرجل هو بلال بن الحرث المزني أحد الصحابة كما رواه سيف في الفتوح، فهذا صحابي فعل كما ترى. وقال في هامش الصفحة: وإن لم تصح رواية سيف فالرجل تابعي جزمًا، ثمّ إن الحجة في إقرار عمر له حيث لم ينهه عما فعل». الرد المحكم المتين على كتاب القول المبين، عبد الله بن الصديق الغماري، ص٥١، ولقد دافع الشيخ محمود سعيد ممدوح عن صحة الرواية، ودفع اعتراضات من ضعفها من المحدثين. انظر: رفع المنارة لتخريج أحاديث التوسل والزيارة، الشيخ محمود سعيد ممدوح، ص٢٦٢ – ٢٧٨

تعالى لا فاعل غيره ولا خالق سواه، وإنّما نسأله بمنزلة حبيبه لديه ومحبته له، وذلك شيء ثابت لا يتغير في الدنيا ولا في الآخرة ومن شك في منزلته ﷺ عند ربه جل وعلا فقد كفره، على أنّ قول عمر بمحضر من الصحابة إنّا نتوسل إليك بعم نبيك يدل على جواز التوسل بالمنزلة وإلا لم يكن له معنى، وأيّ حاجة إليه إذا كان المقصود دعاء العباس؟».[1]

ويقول الشيخ: «ولو كان التوسل شركًا لكان عمر بن الخطاب عندما قال: "اللهمّ إنّا نتوسل إليك بالعباس" مشركًا».[2]

<u>الدليل الرابع</u>: التوسل بالنبي ﷺ يوم القيامة؛ يقول الشيخ: «أمّا التوسل به في عرصات القيامة فلا حاجة للإطالة فيه فإنّ أحاديث الشفاعة بلغت مبلغ التواتر[3]، وفيها أنّ الناس يذهبون إلى الأنبياء يطلبون منهم الشفاعة إلى آخر ما هو معروف».[4]

---

(١) مقالات وفتاوى الشيخ يوسف الدجوي، ج١، ص١٥٦، ١٥٧

(٢) المصدر السابق، ج١، ص٤٨٨

(٣) قال الحافظ السخاوي: وَذَكَرَ شَيْخُنَا (أي ابن حجر) مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي وُصِفَتْ بِالتَّوَاتُرِ حَدِيثَ الشَّفَاعَةِ وَالْحَوْضِ، وَأَنَّ عَدَدَ رُوَاتِهِمَا مِنَ الصَّحَابَةِ زَادَ عَلَى أَرْبَعِينَ. وَمِمَّنْ وَصَفَهُمَا بِذَلِكَ عِيَاضٌ فِي (الشِّفَا). فتح المغيث بشرح الفية الحديث للعراقي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي (المتوفى: ٩٠٢هـ)، ج٤، ص٢٢، تحقيق: علي حسين علي، مكتبة السنة – مصر، الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

(٤) مقالات وفتاوى الشيخ يوسف الدجوي، ج١، ص١٥٧

ثالثًا: اللوازم الباطلة على إنكار التوسل والاستغاثة

إذا كان القوم يزعمون أنّ كلّ طلب عبادة وأنّ المتوسل والمستغيث كافران، فيلزم من ذلك عدة لوازم باطلة؛ منها:

١ - إبطال شفاعة النبي ﷺ في الآخرة.

٢- ترك الأسباب في كلّ شيء.

٣- ويلزم خطأ سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ وقد توسل بالعباس ﷺ.

٤ - ويلزم أن يكون الأموات كالجمادات.

يقول الشيخ الدجوي: «فإنّ رأيك هذا يلزمه ترك الأسباب والوسائط في كلّ شيء، مع أنّ العالم مبني على الحكمة التي وضعت الأسباب والمسببات في كلّ شيء، ويلزمه عدم الشفاعة يوم القيامة — وهي معلومة من الدين بالضرورة — فإنّها — على هذا الرأي — لا حاجة إليها، إذ لا يحتاج سبحانه وتعالى إلى واسطة فإنّه أقرب من الواسطة. ويلزم خطأ عمر بن الخطاب في قوله: (إنا نتوسل إليك بعم نبيك العباس إلخ)، وعلى الجملة يلزم سد باب الأسباب والمسببات والوسائل والوسائط، وهذا خلاف السنّة الإلهيّة التي قام عليها بناء هذه العوالم كلها من أوّلها إلى آخرها، ولزمهم على هذا التقدير أن يكونوا داخلين فيما حكموا به على المسلمين، فإنّه لا يمكنهم أن يَدَعوا الأسباب أو يتركوا الوسائط بل هم أشد الناس تعلقا بها واعتمادًا عليها».[1]

(١) مقالات وفتاوى الشيخ يوسف الدجوي، ج١، ص٢٥٥، ٢٥٦

ويقول الشيخ: «يكون الخلاف بيننا وبينهم مبنيًّا على أنّ الأمواتَ يسمعون ويعقلون ويدعون، أم هم كالجماد لا يستطيعون شيئًا من ذلك، فنحن نقول بالأوّل، مستندين في ذلك إلى الكتاب والسّنّة[١]، والأخبار المتواترة عن كرامات الأولياء، ومرائي الصّالحين، وبركات النّبي الّتي حصلت للمستغيثين به، والاستشفاع به عند زيارته، وقد نصّت على ذلك كتب المذاهب الأربعة، حتّى الحنابلة عند ذكر آداب الزّيارة له. وهم يقولون بالثّاني، وأنّ الأموات قد دخلوا في عالم العدم، كما يقول المادّيّون».[٢]

فالأموات لهم عالمهم الخاص بهم، ولذا فإنّ منشأ غلط هؤلاء هو قياس الغائب على الشاهد؛ ولذا يقول: «وأس الغلط في هذا وأمثاله: أنّنا نعطي

---

(١) ذكر الشيخ على ذلك عدّة أدلّة منها: ١- حديث بلال بن الحارث الصّحابي المذكور عند البيهقي وابن أبي شيبة، وفيه أنّه جاء قبره ﷺ وقال: يا رسول الله استسق لأمّتك، أي ادع الله لهم، فجاءَه في المنام وقال: "بَشِّرْ عُمرَ أَنَّهُم سَيُسْقَون"، وقل له: "عَلَيْكَ الكَيسَ الكَيسَ". ٢- ورؤيته ﷺ جعفرًا ذا الجناحين يطير مع الملائكة يبشّرون أهل بيته المطر. ٣- رؤية أم سلمة للنبيﷺ وإخباره إيّاها بقتل الحسين. ٤- محاجّة آدم لموسى عليه السّلام، وما رأى ﷺ ليلة الإسراء من الحوادث الكثيرة، خصوصًا مراجعة موسى في أمر الصّلاة، وكفالة إبراهيم لأطفال المؤمنين. ٥- نهى عمر عن رفع الصّوت في مسجد رسول الله ﷺ، ونهى الإمام مالك المنصور عن رفع صوته كذلك، ونهت السيّدة عائشة عن دق الوتد بالدّور المجاورة للحجرة الشّريفة، مخافة أن يتأذّى رسول الله ﷺ، وقد كانت تدخل مشدودًا عليها إزارها بعد دفن عمر حياء من عمر. انظر: مقالات وفتاوى الشيخ يوسف الدجوي، ج١، ص٢٦٣ - ٢٦٥

(٢) المصدر السابق، ج١، ص٢٦٣

أحكام العوالم المختلفة بعضها لبعض، مع أنّ لكلّ عالم أحكامًا تخصّه، ونواميس ليست لغيره، فقياس عالم الأرواح على عالم الأشباح من أفسد الأقيسة وأبطلها، والواقفون عند ما عرفوا من أحكام هذا العالم فحسب، إنّما هم الماديّون لا أتباع الرّسل{﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ﴾ [يونس:٣٩].[1]

وإذا كانت هذه كلها لوازم باطلة، فأضحى كفر التوسل والمستغيث باطلاً، وتعود القضيّة إلى أنّ العبادة ما اشترط فيها النيّة ومعرفة المعبود.

رابعًا: الرد على شبه الوهابيّة

يمكن حصر هذه الشبه في شبهتين اثنتين:

الشبهة الأولى: تخصيص جواز الاستغاثة والتوسل بالحي دون الميت

يذهب الوهابيّة إلى أنّ الطلب من غير الله جائز إذا كان من حي، أمّا من الميت فلا يجوز. وهذا التخصيص يقتضي أنّ الحي خالق لأفعاله وهو مذهب القدريّة والمعتزلة، وهو مخالف لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢﴾ [الأنعام:١٠٢] وأفعال الإنسان حيًا وميتًا هي فعل الله تعالى وهو مذهب أهل السنّة والجماعة؛ يقول الشيخ الدجوي: «على أنّ تخصيص الجواز بالحي دون الميت أقرب إلى إيقاع الناس في الشرك، فإنّه يقتضي أنّ للحي فعلاً يستقل به دون الميت، فأين هذا من قولنا: إنّ الفعل في الحقيقة لله لا للحي ولا للميت؟ ومن أمعن النظر في كلامهم لم يفهم منه إلا مذهب المعتزلة في

(١) المصدر السابق، ج١، ص٢٦٦

الأحياء ومذهب الذين يئسوا من أصحاب القبور في الأموات، وعلى كلّ حال فالغفلة عن الفاعل الحقيقي وتخيّل أنّ الفاعل غيره أظهر في الأحياء منه في الأموات». [١]

ويقول: «كأنّ الحي يصح أن يكون شريكًا لله دون الميت، أو كأن الأرواح تستمد قوتها وسلطانها من الأشباح لا العكس، ولكنّهم ليسوا أهل منطق ولا برهان. ثمّ انضمّ إلى ذلك الصلف المذموم والكبرياء الممقوت، فبماذا نخاطبهم وعلى أي قاعدة نحاورهم؟». [٢]

وقد التزم عبد الله القصيمي مذهب المعتزلة في ذلك وقد ادعى أنّ هذا مذهب السلف الصالح؛ فقال: «فالسلف قاطبة يرون العبد فاعلاً حقيقة لا يشذ منهم واحد». [٣]

ويقول: «يصح التوسل بالذات حيّة، ولا يصح بها ميتة؛ لأنّ اجتماعها بالروح يجعلها صالحة، بخلاف مفارقة الروح لها، فإنه يجعلها غير صالحة». [٤]

ولم يوضح القصيمي ما هي صلاحيّة الحيّ دون الميت؟ ولا يبقى له إلا أنّ الحيّ يخلق أفعاله، وهو مذهب القدريّة، والحق أنّ القصيمي كثيرًا ما لا

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص١٤٨، ١٤٩

(٢) المصدر السابق، ج١، ص١٣٧

(٣) البروق النجدية في اكتساح الظلمات الدجويّة، عبد الله بن علي النجدي القصيمي، ص٨٣، مطبعة المنار ١٩٣١م.

(٤) المصدر السابق، ص٤٦

يفهم كلام الشيخ، ويتسرع في إطلاق الأحكام، فضلاً عن تحريف كلام الشيخ دون نسبة الكلام إلى موضعه كما هي عادة الباحثين المنصفين!

وكلام الشيخ هنا واضح، إنكم جوّزتم أن يُطلب من الحي دون الميت، والله هو خالق أفعال العباد، ولم يشذ عن هذا إلا القدريّة الذين قالوا بأنّ الإنسان خالق أفعاله، فيلزمكم الشرك حيث ادعيتم أنّ هناك خالقًا غير الله.

ونسبة مذهب القدريّة في أفعال العباد إلى السلف خطأ بلا أدنى شك، وإلا لماذا حارب السلف مذهب القدريّة؟! قال ابن رجب: «وقد قال كثيرٌ من أئمة السّلفِ: ناظِرُوا القدريَّةَ بالعلمِ، فإنْ أقرُّوا به خُصِمُوا، وإنْ جحدوه، فقد كفروا، يريدونَ أنَّ مَنْ أنكَرَ العلمَ القديمَ السَّابِقَ بأفعالِ العبادِ، وأنَّ الله قَسمهم قبلَ خلقِهم إلى شقيٍّ وسعيدٍ، وكتبَ ذلك عندَه في كتابٍ حفيظٍ، فقد كذَّب بالقُرآن، فيكفُرُ بذلك، وإنْ أقرُّوا بذلك، وأنكروا أنَّ الله خلق أفعالَ عباده، وشاءها، وأرادها منهم إرادةً كونيّةً قدريةً، فقد خصمُوا؛ لأنَّ ما أقرُّوا به حُجَّةٌ عليهم فيما أنكروه».[1]

فمذهب السلف إذن هو أنّ الله تعالى خالق لأفعال عباده، لا كما ادعى القصيمي، وبناء عليه ما زال اعتراض الشيخ الدجوي قائمًا.

---

(١) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، ص١٠٦، تحقيق: الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الثانية، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م

الشبهة الثانية: أنّ الأموات يُطلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله

يزعم الوهابيّة أنّ المتوسلين والمستغيثين يطلبون من النبي ﷺ أو الصالحين ما لا يقدر عليه إلا الله، ويرد الشيخ عليهم قائلاً: «نقول لكم: إنّنا لم ندّع أنّه يفعل ذلك استقلالاً من عند نفسه، بل نقول: إنّه يفعله بإذن الله، وبعبارة أخرى نقول: أعطاه من المواهب ما لا تعقلونه. وهل عرفتم ما يصح أن يعطيه الله عبيده المقرّبين وما لا يصح؟! وهل ثبتت عندكم تلك الحدود الّتي لا يصح لله أن يتجاوزها مع عبيده؟! وهل كان الإتيان بعرش بلقيس قبل أن يرتد الطّرف مما يقدر عليه البشر في نظركم؟! وهل كان رد عين قتادة رضي الله عنه وقد سالت على خدّه فجاء للنبي ﷺ فردّها إليه، فكانت أحسن عينيه، مما يقدر عليه البشر في رأيكم؟! وهل رؤية عمر بن الخطّاب لسارية وجيشه ببلاد العجم مما يقدر عليه البشر؟! وهل إسماعه صوته وهو بنهاوند مما يقدر عليه البشر؟! وهل قول بني إسرائيل لموسى عليه السّلام: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف:١٣٤]، مما يقدر عليه البشر؟! إلى غير ذلك، وهو طويل عريض، أم الخوارق كلّها من هذا القبيل لا يقدر عليها البشر في العادة، ولكنه يقدر عيها بإقدار الله إيّاه؟ وهل تقيسون الأرواح على الأشباح؟! وهل عرفتم نواميسها وما تنتهي إليه، أم ذلك قياس الغائب على الشاهد كما قلنا؟ فهو قياس مع الفارق، بل مع ألف فارق. وهل إذا رأيتم بني إسرائيل يطلبون من عيسى عليه السّلام إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، تقولون: إنّ هذا مما يقدر عليه البشر؟! وهل إذا رأيتم النبي ﷺ يضرب جبل أحد ويأمره أن يثبت ولا يتحرّك، تقولون: إنّ ذلك يقدر عليه

البشر؟! وهل إذا رأيتموه يأمر الشجر فيمتثل أمره، ويخد الطّريق خدًّا، تقولون: إنّ ذلك ممّا يقدر عليه البشر؟! وهل إذا رأيتموه وقد نبع الماء من بين أصابعه قلتم: إنّ ذلك مما يقدر عليه البشر؟! إلى غير ذلك مما جاء في الصحيح، ولا يمكنكم المكابرة فيه. على أنّ لنا أن نقول: إنّ كلّ شيء مقدور للمبشر بالدعاء، فما لا يقدر عليه البشر بالذّات يستطيعه بالدّعاء، فالفاعل في الحقيقة هو الله لا غيره، والّذي يستغيث بالنبي - مثلاً - لا يريد منه إلاّ هذا».[1]

وهنا يصب القصيمي جام غضبه على الشيخ، ويعترض على أنّ الفاعل في الحقيقة هو الله، ويردد كلام القدريّة والمعتزلة، بما يخرجه عن السلفيّة التي ينادي بها؛ فيقول: «قرر (أي الشيخ الدجوي) أنّ الله هو الذي يوجد الإيمان والصلاح، كالصلاة والصيام والحج والزكاة وسائر أعمال الطاعة، ويجزي عليها، ويوجد الكفر والزيغ والزنا والسرقة وسائر أعمال العصيان، ويعاقب عليها، وأنّه تعالى طالب عباده أن يفعلوا فعله، ويعملوا عمله، وفيه من الطعن على الإله ونسبة الظلم إليه، وإبطال الأوامر والنواهي والشرع ما لا يخفى، وبمثله يستطيع الطاعنون على الأديان أن يطعنوا، وبأمثال هذه الآراء خرج الناس من الدين أفواجًا، وإنّها لهادمة جميع الأديان السماويّة، والقوانين الوضعيّة».[2]

(١) المصدر السابق، ج١، ص٢٦٧، ٢٦٨

(٢) البروق النجدية، عبد الله القصيمي، ص٨٢

ولو اطلع القصيمي على كتب علم الكلام ما قال كلمة واحدة مما قال، فالذي يعتقده هو مذهب القدريّة والمعتزلة، وقد ردّه علماء السنّة والجماعة، فضلاً عن ابن تيميّة الذي يدعون اتباعه؛ يقول ابن تيمية: «وَزَعَمَتْ الْقَدَرِيَّةُ أَنَّ اللهَّ يَخْلُقُ الخْيْرَ وَأَنَّ الشَّيْطَانَ يَخْلُقُ الشَّرَّ، وَزَعَمُوا أَنَّ اللهَّ شَاءَ مَا لَا يَكُونُ خِلَافًا لمِاَ أَجْمَعَ عَلَيْهِ المُسْلِمُونَ مِنْ أَنَّ مَا شَاءَ اللهُّ كَانَ وَمَا لَا يَشَاءُ لَا يَكُونُ، وَرَدًّا لِقَوْلِ اللهَّ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠]، فَأَخْبَرَ أَنَّا لَا نَشَاءُ شَيْئًا، إلَّا وَقَدْ شَاءَ أَنْ نَشَاءَهُ، وَلِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [البقرة:٢٥٣]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ [السجدة:١٣]، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج:١٦]، وَلِقَوْلِهِ مخُبْرًا عَنْ شُعَيْبٍ أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف:٨٩]؛ وَلهِذََا سَمَّاهُمْ رَسُولُ اللهَّ مجَوُسَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، لِأَنهَّمُْ دَانُوا بِدِيَانَةِ المْجُوسِ، وَضَاهَوْا قَوْلهَمُْ، وَزَعَمُوا أَنَّ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ خَالِقَيْنِ كَمَا زَعَمَتْ المْجُوسُ، وَأَنَّهُ يَكُونُ مِنْ الشَّرِّ مَا لَا يَشَاؤُهُ اللهُّ كَمَا قَالَتْ المْجُوسُ ذَلِكَ؛ وَزَعَمُوا أَنهَّمُْ يَمْلِكُونَ الضَّرَّ وَالنَّفْعَ لِأَنْفُسِهِمْ رَدًّا لِقَوْلِ اللهَّ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:١٨٨]، وَانْحِرَافًا عَنْ الْقُرْآنِ وَعَمَّا أَجْمَعَ المُسْلِمُونَ عَلَيْهِ».[1]

---

(١) الفتاوى الكبرى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، ج٦، ص٦٥٤، دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

وما أدى القصيمي إلى هذا المذهب هو عدم اطلاعه، وحرصه على تخطئة الشيخ الدجوي.

خامسًا: الاستشهاد بأئمة الوهابيّة

وهذا الاستشهاد على جواز التوسل من باب إلزام الخصوم، فحاجهم الشيخ بأئمتهم، ومن هؤلاء الشوكاني، وابن قدامة الحنبلي.

١- وقد نقل الشيخ كلامًا طويلاً على جواز التوسل من الشوكاني منه قوله: «والمتوسل بالعالم مثلاً لم يعبده بل علم أنّ له مزيّة عند الله بحمله العلم فتوسل به لذلك. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن:١٨] فإنّه نهى أن يدعى مع الله غيره، كأن يقول يا الله يا فلان، والمتوسل بالعالم مثلاً لم يدع إلا الله، وإنّما وقع منه التوسل إليه بعمل صالح عمله بعض عباده، كما توسل الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة بصالح أعمالهم. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الرعد:١٤] الآية فإنّ هؤلاء دعوا من لا يستجيب لهم، ولم يدعوا ربهم الذي يستجيب لهم، والمتوسل بالعالِم مثلاً لم يدع إلا الله ولم يدع غيره دونه ولا دعا غيره معه، فإذا عرفت هذا لم يخف عليك دفع ما يورده المانعون للتوسل من الأدلة الخارجة عن محل النزاع. إلى أن قال: والمتوسل بنبي من الأنبياء أو عالم من العلماء لا يعتقد أنّ لمن توسل به مشاركة لله جل جلاله في أمر، ومن اعتقد هذا لعبد من العباد سواء كان نبيًا

أم غير نبي فهو في ضلال مبين».[١]

فالشوكاني في هذا النص يبيح التوسل، ويدفع شبهة العبادة للمتوسَّل به عن المتوسِل، وأنّ مردّ التوسل بالعالم هو التوسل بعمله الصالح، وليس هذا شركًا فالمتوسل لا يعتقد مشاركة العالم أو النبي الله تعالى في شيء.

ثمّ يعلق الشيخ على كلام الشوكاني بقوله: «هذا كلام علمائهم الذين يقدمونهم على علماء المذاهب الأربعة، على أنّ لهم مع هذا شذوذا لا نوافقهم عليه في كثير من المواضع، ولكنّ أتباعهم الذين لم يتذوقوا العلم إلا منهم ولا يتشدقوا بما يشبه الحق إلا بفضل كتبهم التي لا يستقون الدين والهدى إلا منها وليس وراءها لديهم علم ولا دين يجب عليهم ألا يخالفوهم في ورد ولا صدر، وأن يكون كلامهم حجة عليهم، كما كان الحجة لهم».[٢]

ولقد زعم القصيمي أنّ الشيخ دلّس على الشوكاني فلم ينقل كلامه بأمانة فقال: «وأمّا ما نقل عن الشوكاني في إجازة التوسل فقد اشتمل نقله عنه غاية الغش والتدليس».[٣]

---

(١) مقالات وفتاوى الشيخ يوسف الدجوي، ج١، ص١٤٥، وانظر: الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد، الإمام محمد بن علي الشوكاني، ص٢١، ٢٢، تحقيق: أبو عبد الله الحلبي، دار ابن خزيمة، الأولى، ١٤١٤ه.

(٢) مقالات وفتاوى الشيخ يوسف الدجوي، ج١، ص١٤٦، ١٤٧

(٣) البروق النجدية، عبد الله القصيمي، ص١٦٤

ثمّ دلل على ذلك بكلام آخر للشوكاني لإثبات تدليس الشيخ، بقوله: «قال الشوكاني في نفس الكتاب في أثناء كلامه: إذا تقرر هذا فلاشك أنّ من اعتقد في ميت من الأموات، أو حي من الأحياء أنّه يضره أو ينفعه، إمّا استقلالاً أو مع الله، أو ناداه أو توجه إليه، أو استغاث به في أمر من الأمور التي لا يقدر عليها المخلوق فلم يخلص التوحيد لله».[1]

وهذا عدم فهم لكلام الشوكاني، فالنص الأوّل الذي نقله الشيخ الدجوي يتفق في المعنى مع النص الذي نقله القصيمي؛ ألم تر أنّ الشوكاني قال في النص الأوّل: والمتوسل بنبي من الأنبياء أو عالم من العلماء لا يعتقد أنّ لمن توسل به مشاركة لله جل جلاله في أمر، ومن اعتقد هذا لعبد من العباد سواء كان نبيًا أم غير نبي فهو في ضلال مبين.

وفي النص الثاني قال الشوكاني: من اعتقد في ميت من الأموات، أو حي من الأحياء أنّه يضره أو ينفعه. أي يعتقد الألوهيّة في المتوسل أو المستغاث به، وهذا لا نزاع فيه عند الشيخ الدجوي، وهو عين ما ذهب إليه. أمّا المتنازع فيه بين الشيخ والوهابيّة هو أنّ الفعل ذاته يكفر به صاحبه، بمعنى أنّ من توسل أشرك بمجرد توسله، وأنّ من استغاث أشرك بمجرّد استغاثته، سواء اعتقد في المتوسل أو المستغاث به الألوهيّة أو لا. فأي تدليس في كلام الشيخ؟

(١) البروق النجدية، عبد الله القصيمي، ص١٦٥، وانظر: الدر النضيد، الشوكاني، ص٦٩

٢- ويستشهد الشيخ الدجوي أيضًا بابن قدامة وهو من كبار فقهاء الحنابلة فيقول: «وستسمعون أكثر من هذا ولنذكر لكم عبارة ابن قدامة – وهو من كبار الحنابلة الذين أنتم على مذهبهم – وقد قال فيه ابن تيمية: إنّه لم يدخل الشام بعد الأوزاعي أفضل منه، فلعلّه يحرك منكم الإنصاف أو يذكركم بمذهبكم إن كان لكم مذهب – كما تدعون –، نريد أن نحاكمكم إلى العقل تارة وإلى ما قاله الشوكاني وابن القيم وأئمّة الحنابلة تارة أخرى، وليت شعري هل يفيد شيء من هذا؟».[1]

وعبارة ابن قدامة هي قوله: «تأتي القبر فتولي ظهرك القبلة، وتستقبل وسطه وتقول: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام عليك يا نبي الله وخيرته من خلقه ... اللهمّ أجز عنّا نبينا أفضل ما جازيت به أحد من النبيين والمرسلين وابعثه المقام المحمود الذي وعدته يغبطه به الأولون والآخرون ... اللهم إنّك قلت وقولك الحق: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء: ٦٤]، وقد أتيتك مستغفرًا من ذنوبي مستشفعًا بك إلى ربي».[2]

---

(١) مقالات وفتاوى الشيخ يوسف الدجوي، ج١، ص١٤٩

(٢) مقالات وفتاوى الشيخ يوسف الدجوي، ج١، ص١٥٠، وانظر: المغني، أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثمّ الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي، ج٣، ص٤٧٨، ٤٧٩، بتصرف، مكتبة القاهرة، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م

ويعلق الشيخ على كلام ابن قدامة بقوله: «فانظر إلى استشفاعه به وهو في قبره الذي يحرم الوهابيون شدّ الرحال إلى زيارته، وأظن أنهّم لا يجرؤون على التفرقة بين الاستشفاع والتوسل وإن كنا لا نستبعد منهم ما يعقل وما لا يعقل، كما نعتقد أنهّم لا يفهمون ما يفهمه الناس من أنّ الزائر يستغفر والرسول يستغفر أيضًا وهو في البرزخ، وإلا فلا معنى لإيراد هذه الآية ولا بعد في استغفاره بعد موته. فقد ورد في الحديث الصحيح: (تعرض علي أعمالكم)[1] أي بعد الموت (فإن وجدت خيرًا حمدت الله وإن وجدت شرًا استغفرت لكم)، وقد أطال المناوي وغيره في تصحيح هذا الحديث. فأنت ترى إثبات الاستغفار لنا بعد وفاته ﷺ بنص الحديث».[2]

وقد تحدث القصيمي بكلام كثير فحواه: أنّ الوهابيين لا يلتزمون بابن قدامة، وليس ابن قدامة حجة عندهم.[3]

فابن قدامة ليس حجة، وكذلك علماء المذاهب الأربعة، وإذا ذكرت حديثًا ضعفوه، أو حملوه على غير وجهه، أو آية حملوها على غير وجهها، وإذا حاججتهم العقل لم يعترفوا بسلطانه، وتبقى مسألة تكفير المسلمين في رقابهم، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) قال الهيثمي: رَوَاهُ الْبَزَّارُ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ. انظر: مجمع الزوائد، الهيثمي، ج٩، ص٢٤

(٢) مقالات وفتاوى الشيخ يوسف الدجوي، ج١، ص١٥٠، ١٥١

(٣) انظر: البروق النجدية، القصيمي، ص١٥٦، ١٥٧

الخاتمة

بعد هذه الجولة مع فكر الشيخ الدجوي رحمه الله أسجل أهمّ النتائج التي توصلتُ إليها في النقاط التالية:

١- كان الشيخ الدجوي رحمه الله ابن عصره، وفي عصره ظهر الإلحاد وأطلّ برأسه؛ فنشر أحد الملحدين رسالته لماذا أنا ملحد، ففند الشيخ شبههم، وفي عصره ظهر مدعو السلفيّة، فدافع الشيخ عن عقيدة المسلمين، ولم يسكت يومًا عن البدع الناشئة، وهو ما يميز الشيخ عن غيره من العلماء.

٢- الدين ضروري للعمران في الأرض، والإلحاد خطر على العمران؛ فالإلحاد يخرج الإنسان عن الإنسانيّة إلى الحيوانيّة، فالملحد لا وازع ديني يردعه عن شهواته وملذاته، ومن ثمّ يأكل القوي الضعيف.

٣- العلوم الطبيعيّة بريئة من نسبة الإلحاد إليها، بل إنّ الكشف عن نواميس الطبيعة يفصح عن خالق عظيم ابتدعها.

٤- الأدلّة على وجود الله تعالى كثيرة ومتنوعة، وأفضل الأدلّة بالنسبة للعامة من غير المتخصصين في علم الكلام الأدلّة الكونيّة.

٥- دافع الشيخ كثيرًا عن عقيدة أهل السنّة والجماعة، وأثبت بما لا يدع مجالاً للشك أنّ السلفيّة الحاضرة مجسمة؛ فقد أثبتوا الجهة لله تعالى، ولم يكن تفويضهم في الآيات الموهمة للتشبيه، هو تفويض السلف الصالح، ولم يكن إثباتهم كإثبات بعض أهل السنّة كالبيهقي والخطابي وغيرهما.

٦- تقسيم التوحيد إلى ربوبيّة وألوهيّة لم يكن تقسيمًا معروفًا عند السلف الصالح، ولم يقسمه النبي ﷺ، وأوّل من قسمه هو الإمام ابن تيمية، وهو تقسيم منقوض بأدلّة من الكتاب والسنّة، ويفتح بابًا كبيرًا من أبواب التكفير.

٧- وقف الشيخ حصنًا منيعًا ضد فتنة التكفير باسم التوسل والاستغاثة، فأثبت أنّ التوسل جائز شرعًا، ومن ثمّ كان الهجوم عليه شديدًا، لكنّ هؤلاء لم يستطيعوا دفع أدلته، فجاءت اعتراضاتهم هزيلة جرتهم لاعتناق مذاهب المبتدعة كالقدريّة وغيرها.